3

بم تقدم الأوروبيون وتأخّرنا والخَلق واحد؟!

1

بمَ تقدموا وتأخرنا والخلق واحد؟

هذا السؤال لهجت به ألسنة الشرقيين واشتغل العقلاء به في كل الممالك الشرقية، فغدوا يتساءلون فيما بينهم عن الأوروبيين، ما قدمهم وأخرنا والخلق واحد؟[1].

وكما دار السؤال على ألسنتهم، دار عليها كثير من الأجوبة، وكل واحد يزعم أنه عرف السبب ووقف على علل التأخر، فمنهم القائلون: إن الجوَّ له حكم في انفعال الأجسام بحسب ما تدعو إليه طبيعته، وقد قضى على الشرقيين بالكسل والتقاعد عن الأعمال العمرانية كما قضى على الأوروبيين بالعمل وعلو الهمة، وعللوا ذلك بعلل تفكرها عليهم الأدوار الماضية، فقد أخذ الشرق أدوارًا علمية مدنية استمدت أوروبا مدنيتها من دوره الأخير أيام كانت على أسوأ مما عليه الشرق الآن. ومنهم القائلون إن الدين الإسلامي مانع من التقدم، وهو علة العلل في هذا الباب، وأصحاب هذا القول كالببغاوات

(1) مجلة (الأستاذ) جـ15 - السنة الأولى - الثلاثاء 9 جمادى الأولى 1310 هـ، 21 هاتور 1608، 29 نوفمبر 1892م. ص 337 - 352.

يحكون الصوت ولا يدركون المعني فقد قلدوا في هذا الوهم أوروبيًّا في قوله الذي طارت به الصحف في كل مكان، وفاتهم أن الشرق ممتلئ بأديان تغاير الدين الإسلامي والآخذون بها أضعاف الآخذين بالإسلام، ومع ذلك فإن تقهقرهم في المدنية والقوى العلمية أكثر من المسلمين، بل لا نسبة بينهم وبين المسلمين في المدنية والألفة بين الناس ومعاشرة المغايرين لهم جنسًا ودينًا. فلو كان الإسلام مانعًا لرأينا الهند والصين في تقدم أوروبا، وحالهم شاهدة بأنهم أحط من المسلمين بدرجات.

ودعوى الأوروبي أن الإسلام سبب لحركات الشرق ضد الغرب، وأنه لا سكون للأفكار إلا بإعدام القرآن والآخذين به مدحوضة بالحروب المتواصلة بين دول أوروبا المسيحية من عهد الرومانيين إلى الآن، وكلما كثرت مدنية دولة أوروبية كثر تفننها في آلات القتال والتدمير، مع سكون الشرق هذه القرون الطويلة لا يتحرك إلا دفاعًا عن وطنه الموطوء بأقدام أوروبا الملوثة بالدماء الشرقية. ولا يحركه إلا فتنة أوروبية. ولا داعي لأوروبا في تحريك الممالك الشرقية إلا الطمع الملكي[1] والتعصب الديني، وإنما لشدة تمسك هذا الأوروبي بدينه كره أن يرى دينًا غيره، وأحب أن يسمع صدى صوته في بلاده لتميل النفوس إلى رجل غيور علي الدين.

(1) أي السياسي.

وقد كان للإسلام اليد القوية أيام صولته فلم يبطش بها بمواطنيه[1] ولا مدها إلى معاهديه، بل ولا حرَّك بها عصاه نحو المتوحشين عند نزولهم على حكمه تحت سطوة سلطانه. ولم يكن عند رجاله من التعصب ما يحملهم على قهر الناس بالتضييق على ترك أديانهم، بل خيَّر من نازلهم بين الأخذ به أو الاستيطان على حكمه، وهذه خصوصية له من بين الأديان، ويكفيه من إطلاق حريَّة الأعمال أن وفدًا من نصارى العرب[2] وفد على سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وهو في مسجده، فلما أدركتهم الصلاة قاموا ليصلوا جهة الشرق، فأراد الصحابة التعرُّض لهم فمنعهم النبي وتركهم يصلون في حضرته لغير قبلته وعلى غير ملته. وليس بعد هذا مسلك لحرية الأفكار والأديان.

ومنهم القائلون إن اختلاف الجنس مانع عظيم، وهذا وإن كان له وجه ولكن هناك وحدات أخرى تترك للجنس خصوصيات ومزايا لا تبعده عن الانقياد للسلطة الجامعة للأجناس.

ومنهم القائلون إن الأديان سبب التخاذل الحاصل في العالم ولا سبيل لمنعه إلا بتركها جملة وإعدامها من الوجود، وهذا الفريق مقلد لدهاة أوروبا الذين أفسدوا كثيرًا من الأخلاق الشرقية بهذه الترهات والأوهام. مع أننا لو

(1) من غير المسلمين.

(2) هو وفد نصارى نجران – باليمن – جاء إلى المدينة سنة 10 هـ.

فرضنا عدم صحة الأديان وأنها وضعت نظامات في أيام الخشونة والجهالة ولا لزوم لها الآن مع وجود القوانين الوضعية لكان من الواجب احترامها واعتبارها، فإن تأثير وعدها ووعيدها في النفوس لا يبلغه قانون، فإن الشخص يمكنه أن يفر من عقوبة القانون إما بالبعد عن موجبه[1] وإما بالتحايل على تأويل مواده بالوسائط، ولكنه لا يمكنه أن يفر من عقوبة الله بأية حيلة على معتقده. ولو ترك الناس وشأنهم لأكل بعضهم بعضًا، ولعجزت أية دولة قانونية عن ضبط أفرادها ولو كان لها في كل ذراع عسكري حارس. وما ساعد الملوك على النظام وبث الأمن إلا القانون الديني، وما فتح الباب لأهل القوانين الوضعية إلا الشرائع الدينية. والدين هو الذي يحمل العسكري على بيع حياته في حرب دينية انتصارًا للدين، وإقدامه في الحرب الدينية يفوق إقدامه في الحرب الملكية أضعافًا، وما يدعوه للدخول في ساحة القتال إلا الطمع الأخروي الآتي به الدين. فلو علم العسكري أن لا بعث ولا أجر على عمله لفر من ساحة القتال، فإن أرغم قاتل مُكرهًا. ولا يقال إن الشرف الوطني يلزمه باقتحام غمار الموت، فإنه إذا علم أنه يقدَّم للموت ليفوز الملك أو الأمير بمراده ولا ثواب ولا نعيم فإنهُ لا يبيع حياته بلذة غيره.

وإذا بطل هذا كله لزمنا البحث في العلل التي أوجبت التأخر ولا نتوصل إليها إلا بمعرفة الأسباب التي قَدَّمت أوروبا، فبضدها تتميز الأشياء.

(1) في الأصل: موجبها.

السبب الأول

لا ينكر أن ممالك أوروبا كانت دوقات وكونتات وإيالات وممالك صغيرة وكبيرة، وأن الذين صيروها إلى ما هي عليه الآن عائلات تسلطت على عائلات وضمت الأجزاء إلى بعضها وصيرت كل قطعة عظيمة مملكة مستقلة. وعندما تغلبت هذه العائلات خافت من تحرك الهمم خلف الاستقلال فهدتها التجارب إلى توحيد اللغة في بلادها لتميت حمية الجنس التي تدفع إليها اللغة فلم يكن في بلاد فرنسا أو إنكلترا أو ألمانيا من يتكلم بغير لغة البلاد، والمراد بعدم التكلم بلغة الغير أن المملكة توحد اللغة في المعاملات والتأليفات والتعليم والمخاطبات فلا يستعملون لغة الغير إلا لضرورة تدعو إليها بحيث لا يتوسع فيها إلى حد أن تسطو على اللغة المحلية. وقد اعتنت الدول بذلك حتى أن مثل البلغار قلدت الدول الكبيرة ومنعت لغات الغير من استعمالها في مدارسها. وبهذا القانون نقلوا كل جنس دخل تحت سطوتهم إلى لغاتهم، فحكمت اللغات على الأجناس التي أخذت بها وصيرتهم كأهلها في الأخلاق والعادات لنسيانهم لغاتهم وانفعالهم بفواعل اللغة الموضوع لها تلك الألفاظ. وملوك الشرق أخطئوا هذا الغرض وتركوا المحكومين يتكلمون بلغاتهم ويتعلمون بها فبقيت الجنسيات حية بحياة اللغة، وظلت[1] خاضعة بقدر ما دعت ضرورة الضعف والفراغ من المعدات،

(1) في الأصل: وذلت.

وكلما فتح لجنس باب ثورة أو محرك لاستقلال تدافع حول الداعي وتفانى في الخروج من أسر الغير، يشهد بذلك الأمم التي حكمها العرب ولم يوحدوا اللغة فيهم فخضعوا بقدر ما استعدوا للخروج من سلطتهم أو للتغلب عليهم حتى تمزقت المملكة وتوزعت في أيدي الثائرين والمتغلبين. والترك والفرس عندما أفرغت إليهم دولة العرب تركوا الناس ولغاتهم ولم يوحدوا لغتهم في محكوميهم لا بطريق الإجبار ولا بطريق التعليم، فبقيت نار الجنسيات تحت ردم انتهاز الفرص حتى نمت المبادئ، فقامت عليها الأجناس ثائرة بنفسها أو منبعثة بتحريك الغير لها. ولا ينكر ذلك إلا من جهل استقلال الفرس والأفغان وبخارى واليمن وتونس ومراكش ومسقط وزنجبار والبلغار ورومانيا والجبل الأسود والسرب[1] وممالك السودان والهند الإسلامية، وقد كانوا تحت السلطة العربية ثم التركية والفارسية بعدها. وهذا الذي أخاف ممالك أوروبا فاتخذت ما حصل للعرب والترك والفرس كتابًا تدرس فيه وقاية ممالكها من العوارض المهددة[2] لوحدة كل أمة منها. وكما اتخذت أوروبا توحيد اللغة لتوحيد الجنسية في بلادها التزمتها في الأمم المتغلبة عليها، ولكنها لم تجعل الانتقال إلى لغتها إجباريًّا، بل التزمت التدرج لذلك بتعميم التعليم بها لئلا ينفر المحكومون إذا علموا سعيها في إماتة لغتهم فهي تخادعهم باسم

(1) أي: الصرب.

(2) في الأصل: المعددة.

التعليم، حتى إذا انقرضت الطبقة الحاضرة خرجت التي بعدها مذبذبة، فإذا مضت جاءت الطبقة الثالثة من جنس الأمة الحاكمة لغة ودينًا فتؤمِّن ثورتها وتحركها عليها لكونها صارت منها. وإذا دامت هذه الحرب الخفية قرنًا أو قرنين والشرق في غفلته منحدر في تيار الأوهام ماتت الأجناس العربية والتركية والفارسية والهندية والمغولية والحبشية والإفريقية، وأصبح الشرق مسكونًا بأمم أوروبية لغة ودينًا، وإن ولدوا في آسيا وإفريقيا.

السبب الثاني

عندما تم لكل عائلة أوروبية الاستيلاء على قطعة مخصوصة وحدت السلطة في الجنس المتغلب، فلم تمكن أي إنسان من المتغلب عليهم من أي إدارة فرارًا من توزيع السلطة وضياع القانون بالأهواء والأميال الجنسية، وخوفًا من اتساع سلطة المقهورين بما يحركهم للاستقلال. واستمرت الحال كذلك حتى تم نقل الأجناس لغةً ودينًا وصار المجموع جنسًا واحدًا. وعند تغلب مملكة أوروبية على مملكة شرقية تجعل الإدارات العالية بيد رجال منها لتوحد السلطة وتتمكن من القبض على أزمة القوى الحربية والمالية والإدارية، فتراها تسوق الملايين من الشرق بعشرة رجال منها. وهي لا تمكن أجنبيًّا من إدارتها، فلا ترى روسيًّا قائدًا لجيش إنكليزي، ولا إنكليزيًّا وزيرًا لمالية روسيا، ولا فرنساويًّا وزيرًا لمعارف إيطاليا، ولا إيطاليًّا وزيرًا لحربية فرنسا، وهكذا بقية الدول.

ودول الشرق أخطأت هذا الطريق ولفقت العمال من الأجناس المحكومة وغيرها؛ فانحلت عرى قواها، وكثر فيها الثورات والتغلبات حتى جاءت الدولة العربية فوحدت سلطتها في دورها الأول فنمت مملكتها بكثرة فتوحاتها ونفذت قوانينها الشرعية والوضعية في الممالك التي ربطت خيولها بأبواب ملوكها وأمرائها. فلما اتسع نطاق المدنية وجنح الخلفاء والأمراء إلى الرفاهة والسكون أسلموا أمور إدارتهم إلى الأجناس المحكومة بهم فدعاهم حب الأثرة إلى نزع ما بيد مواليهم وساداتهم، ورجعت العرب القهقرى وكثر المتغلبون، وفسد النظام، وجرت الدماء في كل جهة، وطمعت دول أوروبا فهاجمت الشرق بعد أن كانت ترعد من ذكره، ثم انتهى الأمر بجمع السلطة للأمة التركية، فأخذت دورها الأول بما لا ينزل عن دور العرب، بل تخطت من آسيا لأوروبا، وفتحت بعض قطع منها واستولت عليها قرونًا. وما زالت تزاول الأعمال بنفسها حتى وقفت برزخًا ضيقًا بين أوروبا وبين بلادها وممالك الشرق، ولما انتهت في المدنية إلى حد الرفاهية والخلود إلى الراحة وفوضت أمر كثير من الإدارات إلى غير جنسيتها كانت تلك الأجناس الوسيلة العظمى لتداخل أوروبا في مملكتها وكذلك بقية الممالك الشرقية التي أصبحت ميدانًا للعب رجال أوروبا بعقول أهلها.

السبب الثالث

كل عائلة تغلبت على قطعة في أوروبا وحدت دينها وألزمت المحكومين بالأخذ به وأراقت غزير الدم في سبيل توحيد الجامعة الدينية؛ لئلا تترك بينهم دينًا آخر يوجب النفرة والفتن الداخلية والتداخل الخارجي، وقد اعتنت أوروبا بالدين اعتناءً غريبًا حتى ملأت بكلماته كتب التعليم من أي فن كانت، ورسمت الصليب الذي هو الصورة المحترمة دينًا على الملابس وأواني الأكل والشرب والبُسط والفُرش والآلات وأوراق الزيارة والمباني حتى على أعتاب الأبواب فلا يكاد يقع بصر إنسان على شيء إلا وعليه هذه الصورة المقدسة ليكون الدين في فكر الواحد منهم في كل طرفة عين. ولعلمهم أن وحدة الدين إذا انضمت إلى وحدتي اللغة والسلطة قامت المملكة على أساس متين؛ اهتموا بنقل الأمم الشرقية بطريق التدرج فلم تقهر فرنسا أهل الجزائر وتونس على ترك دينهم كما فعلت إسبانيا في مسلميها عند تغلبها عليهم حيث ألجأتهم إلى التنصر أو الخروج من البلاد، وكذلك إنكلترا لم تكره مسلمي الهند، ولا روسيا قهرت مسلمي طرغستان والتركمان وغيرهم ممن هم في حوزتها، وإنما التزمت كل دولة أن تعمم لغتها فيهم وأن تفتح المدارس لتعليم الأبناء على أخلاق الأمة الحاكمة، وتمنع تعلم الدين إلا مبادئ قليلة جدًّا تموه بها على ضعفاء الإدراك ليخرج

المتعلمون فارغين من الدين فيسهل نقلهم لأي دين بعد، فإن تعرضت أمة شرقية لذكر دينها ولو لم تكن محكومة بأمة أوروبية نودي عليها بالتوحش والخشونة والهمجية، وقيل إن هذا تعصب ديني، مع أن التعصب الديني لا يوجد إلا في صنع أوروبا، ولكن القوة تقول للضعف ما تشاء.

وقد أخطأ ملوك الشرق هذا الطريق، واكتفوا بالفتوح أو التغلب على الغير وتركوه على معتقده كما كان يصنع قدماء المصريين والبابليُّون والفرس والهنود وغيرهم، ثم جاء الإسلام فاكتفى من الناس بالأخذ به أو الإذعان لملوكه، وعندما نشر جناحيه في الشرق والغرب ترك أُممًا كثيرة على أديانهم المسيحية والموسوية والبرهمية والمجوسية والوثنية وأعطاهم حرية التعبد من غير أن يتعرض لهم أحد من المسلمين، وهذه مزية لا توجد في دين غيره. ولكنه لم يجن من هذا الغرس الجميل ثناءً ولا شكورًا، بل هاجمت أوروبا بأجمعها الشام بالنزعات الدينية وخربت دياره وأراقت في كل شبر منه دم إنسان فجلبت الدمار على مسلميه ومسيحييه وإسرائيلييه، وأصبح فارغًا من معدات العمران مُحالًا بينه وبين التقدم بسور الفقر الذي بنته أوروبا بيد التعصب الديني. ومع كل هذه الفتن فإن أصول ديننا توجب علينا حسن معاملة من غايرنا دينًا ومعاشرة الوطني والمستوطن معاشرة المثيل وإن عاملنا بضد معاملتنا له؛ لعدم إمكاننا التصرف في أصول ديننا.

ولم تكتف أوروبا بتوحيد الدين في بلادها، بل عقد الأهالي الجمعيات الدينية وربوا لها ألوفًا من القساوسة، وبذلوا لهم الملايين من الذهب وبثوهم في الشرق تحت حماية دولهم وعنايتها فجاسوا خلال إفريقيا وآسيا داعين إلى الدين وقد انحدر الشرق في هذا التيار الذي لا مرسى له ولا مرجع إلا توحيد الدين شرقًا وغربًا. وقد أخطأ الشرقيون هذا الطريق فنامت الأمم في زوايا الإهمال وعكفوا على الملاهي يصرفون فيها الذهب والفضة، وتركوا العلماء والأحباء والرؤساء يجلسون في المساجد والمعابد والهياكل منتظرين من يقطع البراري والقفار؛ ليتعلم منهم الدين، وقد التزموا الطرق البطيئة وصعبوا على المتعلم طريق الحصول على المعارف، ولا نعيبهم بالتقاعد عن جوب الأقطار مع ما هم عليه من الفاقة والحاجة إلى القوت الضروري، وإنما نعيب الأغنياء وأصحاب الأوقاف الذين ضلوا هذا الطريق وجعلوا أموالهم غنيمة لمن لا يستحقها من نائم في تكية، أو شموع لمولد أو نذور أضرحة، حتى من وفق لرصد شيء للتعليم صودر بما لم يكن في حسابه، ولهذا تأخرت المعارف في الممالك الشرقية وعمت الجهالة عوامَّه واقتصر العلماء على التعاليم الدينية في بعض البلاد، وتركت العلوم الرياضية فماتت الصنائع بموت أهلها وعدم بحث الملوك في إحيائها، وغفلة الأمم عن فتح المدارس والمعامل على ذمة الجمعيات الخيرية والتجارية، فأصبح الناس يعدون مخترعات أوروبا من وراء

العقول، وحكموا على أنفسهم باستحالة الوصول إلى تقدم أوروبا لفراغهم من المبادئ العلمية، وبعدهم عن المسائل الدولية.

السبب الرابع

لما تمت تربية أمم أوروبا تحت أحضان ممالكها وجمعياتها العلمية والتجارية، ورأت الدول أنها لو بقيت على التقاطع والتضاغن مع توحيد الدين بينها صارت عرضة للتفاني في سبيل الأطماع وفتحت للشرق بتخاذلها باب تداخل في شئونها الحربية أو السلمية، ولم تجد شيئًا تسد به هذا الباب إلا المعاهدات الدولية لتأمن كل مملكة شر جارتها، وتلتفت لتنظيم إدارتها فاجتمعت كلمة ملوك أوروبا على حفظ الوحدة الأوروبية من مس الشرق لها مهما تقلبت المسائل الدولية بين أيديهم، وعلى توجيه الهمم إلى الشرق فتحًا واستعمارًا، فتراهم إذا هموا بأمر ضد مملكة شرقية خابر بعضهم بعضًا، فإذا أرضى هذا ذاك وتمت كلمة التداخل والاستيلاء وثبت الدولة العاملة تحت مراقبة أخواتها، فإن فازت بالظفر فذاك، وإن خذلت تداركها الكل، وأوقفوا الشرقية عند حدودها، وكلفوها ما لا يطاق. فإذا انتهت من دورها قامت الأخرى لوثبتها التي أباحها لها الاتفاق، وعلى هذا جرت ممالك أوروبا حتى مكنها الوفاق من التغلغل في إفريقيا وآسيا. وقد أخطأت ممالك الشرق هذا الطريق الجليل فاستبدلت الاتفاق بالنفرة وبث العداوة بين أفراد الأمم، وانتهت العداوة إلى مساعدة دولة شرقية لدولة أوروبية على أمة شرقية مثلها

لاستيلائها عليها وما تشعر أنها واقعة في حبالتها بالقوة أو بالحيلة المالية، ولهذا لا نرى اتحادًا بين ملوك الصين والهند ولا بين هؤلاء والفرس ولا بين المجموع والترك، ولا بين هؤلاء والأفغان وبخارى ومراكش وزنجبار، وبهذا التقاطع تمكنت أوروبا من التداخل بين ملوك تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى، فبتقاطعهم صارت ممالكهم أجزاء صغيرة في قارتين عظيمتين؛ فسهل الاستيلاء عليها واحدة فواحدة، وكل ملك ينظر الحاصل لجاره ولا تترك همته لجمع الكلمة الشرقية أو الاتفاق الدفاعي. وكان لأوروبا اليد القوية في إفساد ملوك الشرق وإيقاع العداوة بينهم بالأكاذيب الموهمة حتى صيرتهم أشد عداوة لبعضهم من عداوتهم لها، بل بتلطفها في الخداع والتمويه صارت محبوبة عند البعض من ملوك الشرق. وعلى هذه الأصول الأربعة بنت أوروبا قواعد ممالكها، وبتربية الأمم تحت أحضانها على هذه المبادئ العظيمة تفرع عن هذه الأسباب أسباب ثانوية كانت قوة على قوة، بل صارت مادة الحياة المدنية وتقدم العلم والصناعة واتساع العمران.

◄ السبب الأول الفرعي

إطلاق حرية الكتَّاب في نشر أفكارهم بين الأمم لحياة أفكار العامة باحتكاكها في أفكار العقلاء، وبهذه الواسطة ربَّى الكتاب الأمم وهذبوهم ونقلوهم من حضيض الجهل والخمول إلى ذروة العلم والظهور، ووجدت الدول رجالًا مدربين لم تنفق في تربيتهم درهمًا ولا دينارًا وإنما رباهم المحررون والعلماء.

وقد أخطأ الشرق هذا الطريق فخاف ملوكه من الكتاب والعقلاء فضغطوا على أفكارهم حتى أماتوها في أذهانهم إلى أن جاءت الدولة العربية وأطلقت حرية الأفكار، وجمعت العلماء من جميع الجهات وترجمت كتب الأوائل الحكمية وغيرها، وفتحت بابًا أغلقه الجهل قرونًا طويلة. ثم انقضى دور الضخامة وتوحيد الكلمة وجاء وقت المتغلبين فتجزأت المملكة وتصدى الثائرون لقتل العلماء وإحراق الكتب وهدم المدارس؛ فانطفأت أنوار العلوم الشرقية وضيق ملوك الشرق على أرباب الأقلام، فبات الصين والهند والعراق وبلاد العرب والجبال والغرب على ما كانوا عليه من عداوة الكُتّاب ونفي الظاهر منهم أو إعدامه حتى ألجئوا كثيرًا منهم إلى الالتجاء لأوروبا وخدمتها بتغرير قومه وتضليلهم؛ انتقامًا أو قيامًا بحق حاميه من الإعدام، ولو أطلق ملوك الشرق حرية التحرير وجعلوا المحررين تحت مراقبتهم، وساعدوا المخلص في خدمة مملكته وجنسه، وأسكتوا المفسد والمهيج لأحيوا الأمم التائهة في القفار وبعثوا فيهم أرواح غيرة وحمية تصان بها الممالك.

◄ السبب الثاني الفرعي

بهداية الأمم الأوروبية إلى المعارف وطرق التقدم تجمع أرباب الأموال منهم لفتح صناديق الأعمال المالية، فتحصلوا بالسهام القليلة على نقود كثيرة واستعملوها في المعامل والتجارة، وساعدتهم الدول فحجرت على مصنوع الغير وتجارته لتروج البضاعة الأهلية وتحفظ الثروة

في داخلية البلاد، وبهذه الطريقة اتسعت الثروة وارتفع الفقراء إلى مقام الأغنياء وأصبحت الممالك تباهي بعضها بثروة أهاليها ووفرة ماليتها.

وقد أخطأ الشرقيون هذا الطريق، وجمعوا المال لوضعه تحت الأرض خبيئة أو لصرفه في الملاذ والشهوات، وتركوا صنائعهم عرضة للضياع، واستعملوا مصنوع أوروبا حتى أماتوا الصنعة والصُّناع، وحولوا ثروتهم إلى أوروبا، فترى الصانع الشرقي يئنُّ من ألم الفقر وهو جار الغني، ولكنه لا يشعر بأنينه لاشتغاله عنه بالملاذ والملاهي.

◄ السبب الثالث الفرعي

لما رأت دول أوروبا أن المخترعات والصنائع النافعة لا تكون إلا من فريق الفقراء سنت قانون الامتياز والمكافأة والشهادات العلمية والعملية ونياشين الشرف؛ لتبعث في الناس غيرة المجاراة والمباراة في التفنن والاختراع، وكلما اخترع واحد شيئًا كوفئ على اختراعه، والتزمه منه الأغنياء وأرباب المعامل فكثر المخترعون، وانتهت بهم البعثة العلمية إلى استخدام البخار والكهرباء واكتشاف العوالم القديمة والحديثة.

وقد أخطأ الشرقيون هذا الطريق فحطوا على المخترعين، وتركوهم وأعمالهم وانكبوا على الأجنبي ومصنوعه، وأغمض الملوك عنهم عين الرعاية والاعتبار ففترت الهمم وقعدت عن السعي خلف النافع من بنات الأفكار، واكتفى كل صانع بالبسيط من الأعمال المتداولة التي لابد منها لكل أمة.

◄ السبب الرابع الفرعي

لما رأت دول أوروبا أن الأمية ما تمكنت من أمة إلا عرضتها للضياع والاستسلام إلى الغير؛ عممت التعليم وجعلته إجباريًّا حتى أصبح الأميون يعدون في ممالكها العظيمة. وقد اعتمدت كل دولة على توحيد التعليم فعلمت الأمة الدين وتاريخ الجنس واللغة وأخلاقها وعاداتها والقانون المدني الجامع لوحدة الأمة وتاريخ المملكة وحقوق الملك وواجبات الدفاع عنه، حتى سرت روح الحياة الدولية في كل فرد من أفرادها، واتسع نطاق الأفكار فأصبحوا في حروب فكرية نتائجها الإحياء وامتداد السلطة.

وقد أخطاء الشرقيون هذا الطريق، فتركوا الأمم تائهين في الجهالة العمياء؛ لتوهمهم أن المتعلمين يعارضونهم فيما هم فيه، وما صيّرهم لذلك إلا إسناد بعض الأحكام إلى الجهلة وضعفاء العقول. وقد نامت الأمم الشرقية تحت ردم التهاون وعدم التبصر حتى مات العلم وأهله، وما تحركت طائفة لعقد جمعية تساعد من بقي من العلماء على نشر المعارف وتوسيع دائرتها، بل كل غني وأمير يجعل الذنب للعلماء لتقاعدهم عن جوب البلاد وجوس الفيافي[1] والقفار، وهم يعلمون من شأن العلماء أنهم لا يملكون شيئًا من الذهب والفضة. وقد حبس الأمراء والأغنياء الذهب والفضة وجعلوهما وقفًا للملاهي واللذائذ، وكلما هبت عليهم ريح تبْكيتٍ

(1) الفيافي: الفلوات والأماكن ذات الغلظة.

قالوا ما أخَّر الشرق إلا العلماء. وبموت أهل المعارف احتاج ملوك الشرق لاستخدام أناس من أوروبا يقومون بهم أوْدَ ممالكهم. ومن نظر لجمعيات أغنياء أوروبا وعدم حصر مدارسها في الشرق والغرب، ورأى أغنياء الشرق وهم يبعثون أولادهم إلى مدارسهم ليتعلموا على قساوسة أوروبا أمور دينهم ودنياهم سفّه أحلامهم وأيقن أنهم العلة الوحيدة في تأخر الشرق عن أوروبا، فالفقير العالم ماذا يقول، والصانع المعدم ماذا يصنع، والعاقل المحتاج ماذا يعمل، وكلٌّ يحتاج إلى المادة ولا مادة إلا جمعيات الأغنياء والأمراء واتجاه الملوك إليها بالعناية والمساعدة المادية والمعنوية.

◄ السبب الخامس الفرعي

لما رأت ممالك أوروبا أن الملوك كثيرًا ما يقعون في خطأ الرأي بالانفراد فيه أحدثوا مجالس الوزراء والشورى التي تقيدت بها الممالك ظاهرًا، فألقت أوزارها على عواتق أعيان الأهالي، ومنتخبيهم لتستمد من أفكارهم ما به يحسن النظام وتبقى المملكة حية بحياة قواها العاملة، وصار للأمم الثقة بملوكهم ووزرائهم لعلمهم أنهم لا يصرفون شيئًا ولا يحدثون عملًا ولا يبرمون أمرًا إلا بمشورة نوابهم، وبتبادل الأفكار بين الوزراء والنواب ظهرت ثمرات عظيمة، واشتد عضد الدول وعظمت قوتها واتسعت تجارتها ومعارفها، وكثر المرشحون للأعمال والإدارات العالية بالتربية في المجالس.

وقد أخطأ الشرقيون هذا الطريق بسبب الجهالة التي عمت الأمم الشرقية، فلم يكن عند ملوكهم ثقة بأعيانهم ووجهائهم، ولا يحبون كثرة العقلاء خوفًا من التغلب الذي يحلم به كل ملك شرقي، وهو وهم لا حقيقة له؛ ولذا نراهم إذا نبغ في ممالكهم أناس وضعوهم تحت سوط التضييق حتى يبغض الغير طريق العقلاء والنبهاء؛ فرارًا من الوقوع فيما وقعوا فيه من البلاء والعناء.

◄ السبب السادس الفرعي

أنتجت تربية الأمم على المعارف إحداث أندية السَّمر والتجارة، فاتخذت المجالس العديدة لاجتماع أهل الأفكار ممتزجين ببعض الضعفاء؛ لينقلوا عنهم ويتربوا تحت أحضانهم، وفي تلك المجالس تدور الأحاديث على الأمم والممالك وأعمال الملوك وأخلاق العالم وتاريخ العمران، فكانت هذه المجالس روحًا ثانية في جسد المملكة المتحرك بروح الوزراء والنواب والعمال، وقد علم الملوك حسن مقاصدهم فلم يضيقوا عليهم بشيء يحول بينهم وبين مدارسهم الأدبية.

والشرقيون أخطئوا هذا الطريق وجعلوا مجالسهم قاصرة على الغيبة والنميمة والسعي في أذية فلان ومعاكسة «علان» والتحاسد والتباغض وتقبيح بعضهم بعضًا واللهو واللعب، وانقطعوا عن العالم بالمرة. ومنهم من اقتصر على الإقامة بين أولاده. ومنهم نفر قليل اشتغلوا بالمعارف واضطرهم

تيار المجتمع المدني إلى الانحدار معهم في غالب الأوقات، وقلَّ أن يجتمع جماعة للبحث فيما ينفع الأمة أو الدولة لعلم العقلاء أن أبحاثهم غير معوَّل عليها ولا ملتفت إليها؛ لانصراف معظم الأمة إلى الشهوات.

***

فهذه هي الأسباب التي قدمت أوروبا ونشرت ألوية التقدم في جميع جهاتها، وبالوقوف عليها عرفنا العلل التي أخرت الممالك الشرقية على اختلاف مواقعها، وأوقعتها في فخاخ أوروبا. وعلمنا أن الدين الإسلامي والأديان الشرقية لم تكن السبب في التأخر كما يزعم كثير من الطائرين حول دهاة أوروبا، بل إن الدين الإسلامي كان السبب الوحيد في المدنية وتوسيع العمران أيام كان الناس عاملين بأحكامه. والجوُّ هو هو الذي كان فيه المتقدمون من المصريين والفينيقيين والفرس والهنود والعرب والترك، وقد تحققنا أن التأخر إنما جاء من تعميم الجهالة بإغضاء الملوك عن وسائل التعليم والتضييق على أرباب الأقاليم والأفكار، وبُعد الأغنياء عن الجمعيات، وتقاعدهم عن ضروب التجارة والصناعة والزراعة، ورضاهم بالبقاء تحت أسر الشهوات. فإذا أطلق الملوك حرية الأفكار والمطبوعات تحت المراقبة، وبذل الأغنياء الذهب في حياة الصنعة وتعميم المعارف في المدن والقرى ومساعدة العلماء على الرحلة خلف حياة العلم، واجتمعت كلمة الملوك والوزراء والأمم على السعي خلف التقدم؛ أمكنهم أن

يوقفوا تيار أوروبا شيئًا فشيئًا حتى يضارعوها قوة وعلمًا. وإلا إذا تركوا هذه الأسباب، وبقوا على ما هم فيه من التقاطع والتحاسد والجهالة؛ كان من العبث تجمعهم في الأندية وتشدقهم بقول بعضهم لبعض: بم تقدم الأوروبيون وتأخرنا والخلق واحد؟.

2
لِمَ اختَلَفَتْ كَلِمَتُنا إذَا اتَّحَدَتْ وِجْهَتُنا؟

تتقلب[1] أوجه الكلام بتقلب المقاصد ملونة بطلاء المصلحة أو المدنية أو ضرورات العمران مختلفة باختلاف المآرب والمشارب. وكلٌّ يدعي أنه الخادم الأمين، ويرى أن الحق ما يقوله، والمصلحة فيما يحث عليه، والخير فيما يدعو إليه، فلا يزال كل كاتب ينمق الألفاظ ويتحايل على ستر مقاصده بلثام المحسنات الكلامية والسفسطة الإيهامية حتى إذا فرغ من مقالته اعترضه المتعقبون وأبطلوا براهينه ودحضوا حجته وعارضوا أدلته، وجاءوا بضد ما يدعوا إليه، وحذروا من متابعته وأمروا برد مقالته وبينوا مقاصده، وكشفوا مخبأته وأظهروا وجهته التي يدعي أنها هي وجهتهم زاعمين أن الحق ما في سطورهم والبلاغة نفث صدورهم، وأكدوا للقراء أنهم على الصراط المستقيم، يدعونهم إلى سواء السبيل، ويهدونهم إلى طريق التقدم والنجاح وما فيه خير العباد والبلاد.

---

(1) مجلة (الأستاذ) جـ17 – السنة الأولى– الثلاثاء 23 جمادى الأولى سنة 1310 هـ– 5 كيهك سنة 1609 – 113 ديسمبر سنة 1892م. ص 385 – 391.

فإذا بحث القراء تلك المواعظ وجودها دخانًا صاعدًا من خلال تراب ينذر باشتعال ما تحته من النيران؛ ليصطلوا بتلك الحرارة التي تذهب ما هم فيه من برد وسلام. هنالك يتبيَّنون أن أفواه الكُتَّاب الباسمة ما انضمت إلا على نيوب صِلٍّ[1] يتحيَّن غفلة النائم لينهشه نهشة يسري منها سمه في جميع الأعضاء. فتراهم يجانبون المحتالين ويفتشون كلام المستعملين آلة بيد الغير، ويحذرون من أدلة السوء والخُدَعة؛ الذي يستميلهم بالتغرير والنفاق. ولو ناقشته في مقاصده لأقسم لك الحجة على حسنها واحتياج الحال إليها، وأوهمك أن طرق الإصلاح التي تخالف مشربه هي طرق الإفساد والخلل. وهكذا يفعل ويقول غيره عند تخطيئه أو إظهار خفايا رسائله المزخرفة بتلوين العبارة، ولا يرجع عن دعواه الخدمة العامة وتكلمه عن الرأي العام وسعيه فيما فيه صلاح الأمة واستقامة أحوالها كدعوى غيره.

كثر الشك والخلاف وكلٌّ يدعي الفوز بالصراط السويّ، هذه هي حالة فريق من الجرائد في الشرق بين عربية وإفرنجية، ترى كل جريدة أنها إنما أُنشئت لخدمة الشرق وأهله، وأنها قاصرة على السعي فيما يقدم المعارف والتجارة والزراعة، وأنها لا ترى إلا ما فيه الأصلح للأمة والأولى لها. ثم يتبين من خلال عبارات بعضها ما تخدع به الشرقيين وتدعوهم إلى الغير[2].

(1) الصّل – بكسر الصاد المشددة – وجمعه: أصلال – : الحية الشديدة الخبث.

(2) أي الأجانب المستعمرين.

فإذا أظهرت ذلك جريدة أخرى قامت الحرب بينهما على ساق، ورأيت كلًّا مدفوعًا بيد أجنبية، والشرقيون لعدم تبصرهم واغترارهم بالظواهر يطيرون حول الجريدتين وينقسمون إلى قسمين. ولكنهم بعد هذا الاندفاع يحصل عندهم التبصر، ويرجع كل فريق باللائمة على نفسه عندما يرى أن الجرائد شقت عصا الجماعة وفرقت الآراء بتفرق الأهواء. وهذا الذي علَّم الشرقيين ونبههم على معرفة نسبة الجرائد وخدمتها لأية دولة، فكانت كمدرسة تربت فيها أفكارهم حتى إذا نبغوا في نقد الجرائد لم يعودوا للانخداع بأقوالها والاغترار بتلبيسها.

ولا تعاب الجرائد بتلك المنازع التي نزعت إليها، فإن المحرر إن كان من أمة أخرى فهو يخدم أمته قيامًا بالواجب عليه، وكل من رأى أنه يخدم أمة غير أمته فهو غرٌّ لم يدخل ساحة العقلاء. وإن كان أجيرًا أو مدفوعًا بيد الغير فهو أجنبي يسعى خلف أُجرته لا يبالي باع أباه بها أو أمه. وقليل من نراهم يخلصون النصح ويحثون على خدمة البلاد والأمة ويبينون الواجبات ويدافعون عن الأمة بما في وسعهم وطاقاتهم، فإذا رأوا جريدة محلية أو أجنبية هُضمت حقوق الأمة أو أمرائها أو ملوكها شنوا عليها الغارة ودافعوا دفاع الغيور كما فعل بعض الجرائد المحلية من عربية وإفرنجية في الدفاع عن حقوق الحضرة الخديوية ردًّا لأفكار مُكاتب التيمس أو ذات التيمس. وكما تفعل الجرائد ذلك عند تطرف الجرائد الأجنبية والحط على الشرقيين بما ليس من أخلاقهم وعاداتهم.

ولقد صار للجرائد في مصر والشام شأن وأي شأن فتربت بعباراتهم الأفكار، وتعلمت الأمة كثيرًا من الأصول السياسية، وخاضت في بحار المذاكرات الدولية، وأبعدت في بحث المقاصد التحريرية، حتى صار العامي يميز بين الجرائد إذا سمع باسمها فيقول: جريدة كذا تابعة لدولة كذا، وجريدة فلان تخدم أمة كذا، وجريدة زيد يصرف عليها من مال عبيد، وهذه غايتها خمود أفكار الشرقيين، وهذه تقصد أن ينحاز الشرق لدولة كذا. وهذا أثر اختلاف الجرائد. وهذه التربية وإن حصلت بضد رغبة الجرائد وداعي إنشائها، ولكنها أثبتت لها الفضل في فتح أبواب المذاكرات وجلب الأخبار وتبيين مقاصد الرجال ومحاورات الدول.

ولا نرى الشرق محتاجًا لشيءٍ أهم من نصحاء مخلصين يبينون طرق الإصلاح الحقة، ويغارون على أوطانهم غيرة الحر على حرمه، ولا يميلون إلى النفرة وتفريق الكلمة الشرقية والتفاخر بالاقتدار على الكتابة أو بسعة الاطلاع أو كثرة المعارف أو التحايل على التقبيح والشتم بعبارات يتخيل الكاتب أنها بعيدة عن الأفكار وهي أقرب لفكر العامي من نعله. فما ضر الشرقيين إلا اختلاف الوجهة، واستعمال ألسنتنا العذبة في تحويل أفكار إخواننا عن الوجهة الشرقية إلى الوجهة الغربية، لوقوف المحررين في مقام المرشدين والوعاظ واعتماد الأمم على أفكارهم. ولكن الشرق قريب العهد بالجرائد، ويرى في كثير منها أن أمم أوروبا لا تعتمد إلا عليها ولا

تسمع إلا نصحها، وأنها ألسنة الأمم هناك والمتكلمة بالرأي العام لكونها تترجم عن حزب أو أمة، فاغتر وظن أنها فيه كذلك فانجر خلف كثير منها حتى رأى نفسه على شفا جرف الضياع بضياع كثير من بقاعه، فتنبه وأخذ يتبصر في أقوال الجرائد وما تحت عباراتها من الأشراك الخفية التي ينصبها الأُجراء. والعجب أن الأجير إذا صار في حكم الغير بعد أن يتمم له ما استؤجر لأجله سيق مع الأمة التي أضلها، وعُد من الأفراد الذين خدعهم وأصبح لا مجد ولا شرف. وشر الرجال من ينفق حياته في إفساد أهل بلاده وإغراء الغير بهم طمعًا في ذهب يموت ويتركه، فيفنى ويبقى ذكره القبيح خالدًا في بطون أوراقه. ومن لنا بتوحيد وجهتنا معاشر الشرقيين وقد نبتت لحوم الأجسام في خدمة الأجنبي فانفعلت لها الأرواح الحاملة لقواها، فكلما حولتها عن وجهتها الغربية دارت إليها فهي قبلة مصلاها التي وقفت في محرابها وقوف القانت الواعظ. وإلا فما بالنا إذا قالت جريدة إن ائتلاف الشرقيين أمر واجب ليشد بعضهم عضد بعض، قامت الأخرى وقالت إن هذا نداء بالتعصب والتجمع، فأدركي يا دولة كذا وتداركي هذه العصابة وبددي شملها قبل أن يستفحل أمرها، وعد سعيها خلف العمران فتنة وثورة. وإذا قالت جريدة ينبغي أن نحافظ على عوائدنا الجنسية والدينية، ونأخذ من محسنات أوروبا ما لا يضر بمعتقد ولا يذهب بمال ولا يهتك عرضًا قامت الأخرى وقالت إن هذه الجريدة تدعو إلى الهمجية وتقهقر

المدنية، وإن سعيها ضد سعي دولة كذا، وهي ضارة بأعمال أمة كذا، وإذا لم تلغ سمع صدى صوتها في الآفاق الشرقية وخيف على التمدن والنفوذ الغربي. وإذا قال كاتب صلاحنا في استقلالنا بممالكنا وأعمالنا، قال له الآخر إننا غير مؤّهلين لذلك، وإن حاجتنا إلى الأجنبي كحاجة الجسم للروح. وإذا قال خطيب إن سعينا خلف تعلم الصناعة مما يزيد قوتنا ويعظم ثروتنا، عارضه الآخر وقال لا معادن عندنا ولا معامل في بلادنا ولا صُناع فينا ولا قدرة لنا، فأولى بنا أن نبقى تحت عوامل الزمن قانعين بمصنوع الغير. وإذا نادت جريدة بحفظ حقوق ملك شرقي كسلطاننا الأعظم أو أمير كخديوينا المفخم قامت أخرى وقالت إن في ضياع تلك الحقوق حياة البلاد وراحة العباد، فإذا سئلت عمن تحفظ له تلك الحقوق؟ قالت دولة كذا أو أمة كذا، وظنت أنها تنصح الأمة وتسعى في مصالحها بهذا البهتان.

ولا ننكر حقوق الجرائد التي تبذل النصح وتهدي إلى الحق كجرائد أوروبا التي بذلت ما في وسعها في خدمة ملوكها وممالكها، ودافعت عن حقوق أممها دفاع المستميت، فترى جرائد كل أمة جارية على طريق واحد لا تتحول عنه ولا تميل إلى الغير، فإذا تصفحناها على اختلاف مشارب محرريها ومذاهبهم وجدنا في كل كلمة معنًى يدعو إلى الوطنية ويحرض على المحافظة على الحقوق المقدسة والعوائد الأهلية والمذاهب الدينية. ولا يلام أجنبي نزح عن بلاده ليخدمها في

الشرق فإنه يقيم بذلك الدليل على صدق وطنيته وجدّه في خدمة ملته وانتصابه للدفاع عن دولته، فالذي نسميه خداعًا وتغريرًا من الجرائد الأجنبية بالنسبة لمغايرته لمصالحنا هو عين المجد والشرف لها؛ لكونه وجهتها التي توجهت إليها، سكنت الشرق أو الغرب. ولكن العجب من شرقي يخدم غربيًّا بسلب حقوق إخوانه، وإضاعة شرف أوطانه، والحط على ملوكه وأمرائه، ينادي إخوانه بلسانهم كأنه ناصح مشفق، ويستعين عليهم بهم، وينفق على إضلالهم من مالهم، حتى إذا استلان عرائكهم قذف بهم في ساحة الغير. والأجنبي المحض خير للشرقيين من هذا المحتال ولقد أثرت أكاذيب مثله في نفوس الشرقيين حتى ميزوا الخبيث من الطيب لثقل الكذب على أسماعهم. ولا نلبث أن نرى الأفكار الشرقية وصلت إلى وحدة صرفة تصدم بها كل هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل. وإنما يوصل الشرقيين لذلك قرع أسماعهم بنصح الجرائد المخلصة محلية كانت أو أجنبية، وتبيين مشارب الجرائد الخادعة ووجهتها والتحذير من فتنتها التي تدعو إليها ومستأجرتها التي تنادي باسمها. إذ ذاك تتجه القوى الفكرية إلى وجهة واحدة في جميع الممالك الشرقية مع مراعاة كل أمة خصائص مملكتها ومزايا متعبَّدها ورجوع المجموع إلى نظام يماثل به نظام أوروبا مدنية وشرفًا واستقلالًا.

ومن العبث أن يتصور وصول الشرق إلى القوَّة العلمية والتجارية والإدارية في زمن يسير، أو عصر هذا الجيل فإن ذلك لا يقول به مجنون فضلًا عن عاقل، وإنما يسعى الحاضر جهده[1] فيأتي من بعده على إثره فتتدافع قوى العلم والعمل عامًا فعامًا، وجيلًا فجيلًا حتى ينتهي توحيد الوجهة إلى حالة لا يقال فيها: لم اختلفت كلمتنا إذا اتحدت وجهتنا؟.

---

(1) في الأصل: جد.

3
أَتَتَقَلَّبُ الأُمم بتَقلُّب الأَحوال، ونحنُ نحنُ؟

نعم[1]، فإن شجر العداوة والحسد مغروس في قلوبنا يُسقَى بماء الحقد، وكلما جف احتكت جذوعه فالتهبت نيرانه، وبات كل شرقيّ يصطلي بنار أخيه المشتعلة بأجزاء ذاته التي يظن أنها تشفي غيظه وتريحه بإحراق من يراه مثيلًا يدافعهُ، أو قرينًا يساويه في الرتبة، وما احترقت إلا أعضاءُ الهيئة الاجتماعية، ولا عدمت إلا دعائم الوطنية والملك. فنحن في انتظار هلاك بعضنا ننتظر خراب ديارنا وضياع أوطاننا واهمين أن ما حصل لزيد إنما هو انتقام منه لعبيد، وما نكب به عمرو وسيلة لرفعة خالد، فالجار يترقب موت جاره مع علمه أنه غير وارثه، والابن ينتظر موت أبيه مع كونه واسطة وجوده، والمرؤوس يرى موت رئيسه مع أنه حجاب بينه وبين الضياع، والمجموع يمقت بعضهُ بعضًا، وكل ذي لب لا شاغل لهُ إلا الفكر في سوء إدارة زيد وعدم انتظام سير عبيد وقعود همة فلان وغفلة

(1) مجلة (الأستاذ) جـ18 – السنة الأولى– الثلاثاء 1 جمادى الثانية سنة 1310 هـ، 12 كيهك سنة 1609 – 20 سبتمبر سنة 1892م. ص 409 – 422.

فلان، وما درى كلٌّ منا أنهُ فرد من الأفراد الذين وُجّه إليهم اللوم وخصهم بالتبكيت، فهو يذم نفسه ويعيبها بما هو فيها، فإنه مرآة أخيه فما تراءى له في ذات أخيه فهو في ذاته، ولكن انحدارنا مع تيار التفاخر بالأوهام وحط بعضنا على بعض واستواءُ جاهلنا وعالمنا وعظيمنا وحقيرنا في خداع كل صاحبه ومنافقة رفيقه بقدر حاجته، وامتلاءُ القلوب بتمني زوال نعم بعضنا أبعدنا عن شاطئ المصلحة الشرقية، فنحن غرقى أوهامنا التي نظنها علمًا وفضلًا وحكمة ونبلًا، ننتظر رحيمًا ينشلنا أو شرقة تقتلنا فننزل إلى قاع بحر الضياع طعمة لحيوان أو رجوعًا إلى العدم.

ولا يتعجلن معترض بالطعن في هذه الأفكار قبل أن يتأمل فيها، فما زرع هذه الضغائن إلا سرعة الاعتراض بغير حق، وتصدي هذا لتزييف كلام ذاك، ودعوى فلان أنه أعلم من فلان، وتسلط شرقي على أخيه لتنمو ثروة غربي أو تعلو كلمته. فهذه أجناسنا الشرقية لم تجتمع للإقامة في إقليم اجتماعها في مصر، وقد اختلفت مقاصد الوافدين والنازحين في أسباب أعمالهم، واتحدت وجهتهم في التماس الرزق أو التدرج إلى تملك ما بيد المصري من عقار ومزارع، ولكنها لم تحسن المعاملة مع بعضها، واتخذت المغالبة على سلب حقوق المصري وسائل لمقاصدها، فالتاجر التزم الغش والخيانة والكذب والخداع تحايلا على رواج تجارته الرديئة، والمرابي اتخذ الخيانة والغدر والتزوير طريقة لنزع ما بيد المصري من أثاث وعقار،

فابتدأ أمره بدراهم معدودة وانتهى بتحايله إلي قناطير منضودة، وقد التزم طرق الحيلة، فهو وطني ما لان معه حاكم وطني وساعده على نهب الفلاح وتفليسه، وأجنبي إن ظهر غشه وغدره يحتال لسلب الفلاح بالمحاكم الأجنبية التي لا يدري الفلاح شيئًا من أصولها. والمستخدم في الحكومة تعصب لجنسه، فاجتهد في إبعاد المصريين عن الوظائف الأميرية، ووضع وطنيَّه مكانه حتى أقفل بيوتًا كثيرة وأفقر أغنياء بقطع مواد الثروة عنهم. ثم تحيز كل جنس من النزلاء في نقطة سكنًا واستيطانًا ليبعد عن المصري ويستقل مع جنسيته بخصائص المجامع التجارية والأدبية والأفكار الإدارية والدولية، واتخذ كل فريق مجمع لهو أو أنس خادمه وصاحبه ومديره من جنسيته حتى لا ينتفع المصريُّ بشيء من الغرباء. ثم اجتمعت كلمة النزلاء على ذم المصري وتقبيح أعماله وأقواله وإظهار خفاياه إلى من يهمهم الاطلاع على عوراته التي يرونها بابًا للدخول في بلاده أو سلب ما بيده. وهذه الأعمال كانت سببًا في غرس الضغائن بين المصري وبعض نزلاء بلاده، إذ لا يتصور أن إنسانًا يتغلب على قوت إنسان ومظهره وأثاثه وعقاره ثم يرى أنه بعد ذلك يحبه أو يحمده، فإن رأى منه ميلًا أو محبةً فإن ذلك نفاق يداري به بعضهم بعضًا، ويتقي به كل منهم شر الآخر؛ ولهذا ترى النزلاء لخوفهم على ما بأيديهم من التجارة والأعمال يظهرون التجنس بغير الجنسية الشرقية، ويعدُّون أنفسهم من الغربيين ليشتركوا معهم فيما

يسمحون لهم به من الأعمال. ولا يلام غربي على تداخله في شؤون الشرق وأهله؛ فإن ذلك من أطماع الملوك في كل زمن، وإنما نلوم الشرقيين على تعاميهم عن مصلحة بلادهم وانصرافهم عنها بالاشتغال بمصالح الغربي.

فإن من داخل الأجناس الشرقية القاطنة بمصر ورأى تفرق الأهواء حول المنفعة الذاتية وكراهة كل جنس لمثله وتقبيح كل فريق عمل الآخر وسعي كل طائفة في إذلال الأخرى مع غفلة المجموع عن ثمرة الاجتماع الشرقي ونتائج قلع الأحقاد وتصاممهم عن سماع الدعاة إلى توحيد الوجهة والسير وذمهم كل من دل على فضيلة أو حذر من رذيلة وتعصبهم على كل نابغ منهم، زاعمين أن ما هم فيه هو ثمرة المعارف ونتيجة العلوم، واهمين أن الفض لفي قلب الحقائق وجعل الباطل حقًّا والخطأ صوابًا، علم أن الشرق إنما أضاعهُ أهله، وأفقره بنوه وأذله نبهاؤُه. ومن رأى التقاطع الحاصل بين ذوات المصريين الأول وبين القائمين بالأحكام الآن، وتمدح الفريق الثاني برأيه وتدبيره، وذم السابقين بالجهالة والخشونة، وكراهة الفريق الأول لما هو حاصل من الثاني، ثم رأى تباعد العلماء عن مجالس الأمراء والنبهاء، ونفورهم من المحدثات من غير رد قوليّ أو معارضة فعلية، وحط بعض الناس عليهم بنسبتهم إلى أمورهم براءٌ منها، ثم رأى تحيز أفرقاء الأمة إلى هذه الأقسام، وتوزيع الأهواء حول تلك الغايات الوهمية أيقن أن الوهن تمكن منا معاشر المصريين خصوصًا والشرقيين عمومًا بتخاذلنا وتقاطعنا

وصار وصول الغرباء إلى مقاصدهم أسهل من تناول الماء من عين تجري على وجه الأرض، فلو أبدل الذوات والأمراء والعلماء والنبهاء السابق منهم واللاحق هذه المنافرات والمطاعن الافترائية بتوحيد كلمتهم وتخللوا مجامع بعضهم متذاكرين ومتشاورين وعقدوا عزائمهم على مقابلة تلك العصبيات بعصبية مصرية أو شرقية لها من فضائل الأجناس ما لغيرها، وأخذوا في إصلاح ما بيدهم من الأعمال والإدارات باتفاق الآراء وتدبير شئونهم الخاصة والتزام الاقتصاد وحسن السير لَنَظَرَتْهم أوروبا بعين الاعتبار والإجلال، أمكنهم أن يحافظوا على ما بقي من موجبات الشرف وحياة الوطنية والجنسية.

وإلا فما حظ البلاد من عظماء يجتمعون للمسامرة بما ليس فيه فائدة للبلاد، وشيوخ كل حديثهم ذم الشبان وما هم فيه من الاسترسال خلف الشهوات من غير أن يبينوا لهم طرق الهداية وسبل الاعتدال، وشبانٍ يصرفون أوقاتهم في معاقرة الراح ومنادمة الصباح والتزلف للأجنبي بصرف مياه الوجه والحياة والشرف والثروة. وما فائدة البلاد من غوغاء يبيتون سكارى ويصبحون حيارى، وقد اشتغل عنهم العظماء بالفكاهات والتياترات وحسن المسامرة، وأعرض عنهم العلماء وتركوهم في غيهم يمرحون بلا وعظ ولا تحذير اكتفاءً بمعرفتهم أن ما يفعلونه ضلال وبهتان، واحتقرهم الشبان النبهاء فأبعدوهم أو بعدوا عن مجالسهم وخاللوا النزلاء وخالطوا الغرباء.

غاض والله الدمع، وصرنا نعيَّر بالبكاء الذي هو جهد النساء. كل ما نحن فيه معاشر الشرقيين خبل وهُلاس ولا برء لنا منه إلا بمعرفة التركي حقَّ العربي وفضله، واعتراف العربي بمجد التركي وسيادته، واتفاق السوري مع المصري، وائتلاف الهندي باليمني، واتحاد العراقي بالفارسي، وارتباط التونسي بالمراكشي، وتوجيه نظر المجموع وهمته إلى ما يسمَّى شرقًا لا ما يسمَّى جنسًا، فإن حاجتنا إلى توحيد الكلمة حاجة الأعمى إلى من يقطع به الصحراء.

فُضَّ فُو رجلٍ يقول: لا ندرك هذه الغاية إلا بثورة نبدد بها جموع النزلاء والغرباء، فإن النزيل إما شرقي تحتاج إليه لكونه أخاك، وإمَّا غربيٌّ عرف منك حسن الخُلُق ووثق بمعاهدات حكومتك فرحل إليك وهو موقن بالأمن على حياته وعرضه وماله. وكذب رجل يقول: إن الاستظلال بظل الغير حياة للوطنية والمدنية، فما يريد أن يفر كل مخلوق إلا من الأسر والاستعباد. لم تقم أوروبا على ساق القوة بعد الضعف عن النهوض إلا بالحصول على القوى الثلاث: قوة العلم، وقوة المال، وقوة العُدد، ونحن الآن في حاجة إلى العلم، فإذا حصَّلناه جاء من بعدنا فعظم به الثروة، ثم يأتي من بعده فيعد بها العُدد، ثم يأتي بعد هؤلاء من يقول للغربيين نحن وأنتم.

ولا نصل للقوة العلمية وفينا من يقول العز في الخمول، والسعادة في العزلة، والفضل في الزهد في الدنيا والبعد عما في أيدي الناس، فإن من توكل على الله كفاه، وهذا الفريق متخلل بين العامة يزعم أنه من الهداة، وهو من المضلين، فلو كان من البصراء لطالع سيرة نبينا سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم؛ وغزواته، وفتش في سياسيته السماوية والأرضية، ولأيقن أنه كان أكثر منه توكلًا على الله تعالى، وأزهد في الدنيا وما في أيدي الناس، ولم تقعد به همته العلية عن مزاولة الحروب بنفسه الشريفة، وفصله قضايا الأمة، وجلوسه لتعليم الناس، وسعيه في مصالحهم، ومخاطبته الملوك والأقيال والأمراء، ومعاملته المسلم والمسيحي والموسوي بعدل لا يضمنه الآن أحسن قانون، ولا ينفذه أقوى سلطان، فهؤلاء بجهلهم سيرة نبيهم سولت لهم أنفسهم أنهم قائمون بإرشاد الأمة وهدايتها إلى الطريق الحق، وما دروا أنهم أماتوا الهمم وصرفوا النفوس عن التعلق بحوافظ الدين والملك معًا.

ومن هذا القبيل الذين دونوا دواوين الخطابة وجعلوها قاصرة على التزهيد في الدنيا والتحذير من المال وجمعه والفرار من المجامع والظهور والرضا بخشن العيش والصبر على الذل والهوان.

وتركوها للخطباء يخطبون بها يوم الجمعة حيث تجتمع الأمة اجتماعًا لا يتفق لأمة أخرى، فيدخل الرجل للصلاة وهو يفكر في عمل يصلحه

وصناعة يتقنها وإدارة يحسنها ومعيشة يوسعها ونظام يحفظه وإخاء يحافظ عليه ووطن يسعى في وقايته، وملك يدافع عنه وحق يطالب به، ويخرج وقد ماتت همته وانصرف عن الأفكار الجليلة بما غرسه الخطيب في فكره من قبح الدنيا وسوء مصير المشتغلين بها. فلو تصدت أوروبا لإماتة همم المسلمين وصرفهم عن مجد الملك والدين والجنس، وقطعت دهورًا في اختراع طريق تصل به هذه الغاية ما اهتدت إلى ما فعله الخطباء من تحويل الخطابة عن عهدها النبوي إلى ما قاله المتملقون إلى الملوك أو الغافلون عن طريق الهداية وإصلاح الأمة.

ونحن نستفتي هؤلاء المثبطين: إذا كانت الدنيا يحذر منها فلمن خلقت؟ وإذا كان الاشتغال بها بهتانًا وضلالًا، ولا يشتغل بها إلا أعداء الله فلم نتألم من تسلط الغير علينا ووقوعنا في أيدي المتغلبين ونعد الرضا بذلك ذنبًا ومعصيةً؟.

كل هذا انصراف عما كان عليه السابقون، فقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يخطب الناس بوقائع الحال، وربما طرأ عليه الأمر في غير يوم الجمعة فيرقى المنبر ويخطب به الناس، وجاء الخلفاء الراشدون على إثره، فكان أبو بكر يخطب بأحوال أهل الردة وخروجهم من الإسلام ووجوب قتالهم، وكان عمر يرتب جيوشه ويولي الأمراء ويفرق الألوية ويعلم الأحكام وهو على المنبر، وكان عثمان يخبر الناس بخراج

البلاد وأحوال الفاتحين وهو يخطب، وكان عليٌّ يذكر الحاصل بينه وبين الثائرين عليه، ويعلم الأحكام، ويوصي الحكام، ويلقن التوحيد، ويقص أخبار السابقين وهو على المنبر، ولم نسمع أن هارون الرشيد خطب من ديوان، أو أن المأمون ألفت له خطبة، أو أن مولاي إدريس[1] جمع له العلماء كلامًا موزونًا مسجوعًا، بل كان يخطب كل خليفة وأمير بما يراه صالحًا للأمة، وما طرأ عليه من وقائع الأحوال الداخلية والخارجية.

فعلى العلماء الأفاضل ورجال الخطابة أن يغيروا هذه الطريقة ويخطبوا الناس بضروريات دينهم ودنياهم، فإنهم إن فعلوا ذلك وعلموا الناس الدين والتجارة والملاحة والفلاحة والمعاملة والمخالطة، وذكروا للعامة أحوال ممالكهم وما تحتاجه من العناية بها والسعي في حفظها، ونبهوهم على الوقائع الحاصلة في ممالك الغير تحريضًا على المجاراة أو تحذيرًا من الوقوع فيها، وحذروهم من الفتنة والدخول فيها والهيجان والقرب منه، وعلموا الناس الحقوق الوطنية والمدنية وواجبات العمران ومقدماته واجتهدوا في ذلك أثروا في النفوس تأثيرًا غريبًا وقادوا الأمة إلى التقدم بسرعة عجيبة وفعلوا في النفوس والقلوب ما لا تفعله الجرائد وأوامر الملوك والسلاطين.

---

(1) إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثني – أبو القاسم – (177 – 213 هـ، 793 – 828م) ثاني ملوك الأدارسة في الغرب الأقصي، وباني مدينة فاس سنة 192 هـ.

فإن الجرائد لا يقرؤها إلا العارفون بها وهم عدد قليل جدًّا بالنسبة إلى سواد الأمة الأعظم، ويأخذون ما فيها على أنه وقائع أحوال، وأما الخطبة فيسمعها الأُميُّ والقارئ والعالم والجاهل، ويأخذون كلماتها على أنها إرشاد من واقف موقف النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم، يأمرهم وينهاهم، فتأثيرها في النفوس يكون عظيمًا جدًّا لتعلقها بالدين.

وكأننا بغِرٍّ يقول: إن هذا دعاءٌ للتعصب الديني والدنيوي، فنجيبه بأن هذا أمر ديني لا تتعرَّض الملوك إليه ولا تمنع منه لقيام كل أمة بأمور دينها من غير معارضة، خصوصًا في مصر أو الشرق بأجمعه، فإن أصحاب الأديان ممتعون فيه بحرية لا تماثلها حرية الأفكار في أوروبا، تشهد بذلك الكنائس المشيدة والأجراس المرتفعة والهياكل الهندية والمعابد الإسرائيلية ومدافن الأمم المتغايرة جنسًا ووطنًا ودينًا فلا يحصل في مصر أو الشام أو الأناضول أو بلاد العرب أو الفرس أو غيرها مثل ما حصل في نابولي أيام إقامة حضرة الخديوي الأسبق[1] بها حيث توفي سفيان أغا فاشترى له قطعة أرض ليدفن فيها فلما حملوا نعشه صارت الصغار ترجمه بالطوب من كل ناحية، فلم يتخلصوا منهم إلا بذكر المسيح أمامه، ولا مثل ما يحصل من إرسالهم كل مسلم مات في أوروبا إلى وطنه. ولقد مات

(1) الخديوي إسماعيل (1245 – 1312 هـ، 1830 – 1895م) الذي عزل عن عرش الخديوية سنة 1879م. وأقام بإيطاليا وتوفي بالآستانة.

تلميذ مصري بباريز، فأبى كل فريق دفنه في مقابره حتى أخذه بعض قسوس الكاثوليك فدفنه، فقامت الجرائد تطنطن باسم ذاك الرجل مدحًا وثناءً على قبوله مسلمًا في مقبرة طائفته لكون ذلك غريبًا جدًّا عندهم.

والشرقيون يقبلون ملايين من الأوروبيين في أراضيهم، ولا يُحمدون على شيءٍ من ذلك، كأن أهل الشرق خلقوا عبيدًا لأوروبا. فبهذه الحرية التي تمتع بها الأوروبي في الشرق يتمتع الشرقيون كذلك بإجراء عوائدهم واتخاذ طرق إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق، وليس هذا من باب التعصب كما يزعم الدخلاء، وإنما هو من باب تربية الأفكار التي تدعو إليها أوروبا وتريد أن نصل إليها بإقامة جماعة منها بين ظهرانينا. وطريق أوصلتنا إليه أوروبا طريق مأمون، وإلا كانت دعوتها إليه غشًّا وخداعًا، وهي لا ترضى ذلك ولا تقول به.

على أن المسلمين الذين في غير مصر يجرون عاداتهم ولو لم تكن شرعية بأية طريقة توصلهم إليها، كاهل تونس عندما منع الحاكم الفرنساوي ضرب مدفع للإفطار ومدفع للسحور في بعض المدن؛ وعلل ذلك بزيادة المنصرف، فالتزم القاضي بدفع قيمة البارود الذي يصرف في رمضان من استحقاقه، واستمرت العادة، وهي ليست من الدين في شيء فأولى أن نطالب أنفسنا بما فيه صلاح حالنا واستقامة عامتنا، ولتكن الخطبة خالية مما يوغر صدور الشرقيين من ذم وطنيّ غايرهم دينًا، فإن في الإيغار تفريق

الكلمة التي نريد جمعها، وباعثًا لتداخل الأوروبي بعلة طلب الراحة لدينيه الشرقي كما هو جار في معاملة أوروبا لملوك الشرق.

وليس من التهذيب أن نذم أوروبا ونقبح أعمال أهلها وعوائدهم، فإن لكل أمة خصائص ألفتها وعادات لزمتها، وإنما نذم الذين أرادوا تقليد أوروبا فأخذوا بما عليه الغوغاء والرعاة من التهالك في الخمر والقمار والفسوق وتركوا ما عليه أرباب الأفكار ورجال المعارف من خدمة الأمة والبلاد بما فيه الصلاح والعمارية.

وإذا علم العامي وغيره أن الخطيب يخطب بوقائع الوقت ويحث على ما يناسب الزمان والمكان هرعوا إلى المساجد وكثر المصلون، وعاد للمساجد من يختفون في البيرة[1] حتى يخرج الناس من الصلاة. وإني لأعجب من أناس تركوا الصلاة كسلًا وتهاونًا، وهم يرون أميرهم المفخم[2] حفظه الله تعالى يؤدي أوقاته ويحضر الجماعات في المساجد منتظمًا مع أفراد الأمة في صف من صفوف المسجد، ويسمعون أن خليفتهم الأعظم[3] يذهب إلى المساجد ويصلي مع الأمة، فما بال هؤلاء الناس لا يقلدون ملوكهم ولا يستحيون من الله ولا من الناس. أيرى أحدهم أنه

(1) محلات السكر.

(2) الإشارة للخديوي عباس حلمي الثاني (1291 – 1363 هـ، 1874 – 1944م).

(3) الإشارة للسلطان عبد الحميد الثاني (1258 – 1336 هـ، 1842 – 1918م).

حر الفكر، أي لا يعترف بصحة دين، كما يزعم كثير من دهاة أوروبا الذين اتخذوا مشدقتهم بهذه الأضاليل مصائد لضعفاء اليقين من أهل الشرق، فإن كان فيهم من يرى هذا فليقلد من أضله في فعله المدني، فإنه لا يتأخر يوم الأحد عن الكنيسة ولو لم يعتقدها في زعمه ليساوي بني جنسه ودينه فيما هم فيه ويجتمع معهم في روابط الاتحاد وتوحيد الكلمة، ولا ينفر العامة من أصل بُني عليه أساس الملك وحفظ به نظام العمران.

ولسنا في زمن فترة حتى يكون هذا الكلام دعاءً لتجديد دين، وإنما نحن في زمن المشابهة والمماثلة ومجاراة الأمم بعضها بعضًا، وقد امتلأت المحافل والطرق برسائل الأمريكان واليسوعيين[1] وفرقت حتى على المسلمين في مصر والشام وبلاد العرب وعلى المجوس والبراهمة في الهند والصين دعاءً للدين وحثًّا على الأخذ بالدين المسيحي، وما نرى جماعة من الأوروبيين سكنوا جهة في مصر وإسكندرية أو الشام إلا بنوا في كل حارة كنيسة، فهذه جهات الفجالة وشبرا والإسماعيلية والمطرية بها كثير من الكنائس، وما بني فيها مسجد لمسلم، كأن المسلمين الساكنين بها ليسوا من هذه الأمة. فإن قيل إن المساجد كثيرة وهم يذهبون إليها قلنا فلِمَ لم يكتف الأوروبي بالكنائس الأخرى ويذهب إليها.

(1) أي المنصرين الأمريكان- البروتستانت- واليسوعيين- الكاثوليك، وهي رهبانية أنشأتها أغنى طيوس، دي لولا (1491 1556م) 1540م.

والمجاراة تلزمنا بتقليد أوروبا في عملها، فإنها تعد ما نحن فيه همجية وما هي فيه مدنية، فلم نتأخر عنها ونبقى في هجميتنا المذمومة عندها. نرى ارتباط الأجناس مانعًا حصينًا من تبديد ثروتها وإضعاف قوتها، ونحن توزعت أهواؤنا فتبددت قوانا الجامعة للعصبية فلا نسمع من فلان إلا ذم صاحبه ورميه بالعجز عن عمله، وربما أردف هذا الذم بالسعاية بل بالسعي في إيذائه، فنرى الظاهرين منا يصرفون وجهاتهم واعتبارهم في إقفال بيوت إخوانهم ومساعدة الدخلاء والنزلاء بيدهم ولسانهم، مع أننا نرى الناس أمامنا إذا أراد أحدهم الاشتغال بعمل ساعده إخوانه وحسنوه للناس وداروا بين العظماء أو الوجهاء محسنين ومرغبين، وإذا خلا أحدهم من خدمة اجتمعوا وجدّوا في رجوعه أو دخوله في محل آخر، وإذا أفلس أحدهم جمعوا له مالًا وفتحوا له محلًّا يستغله، ونحن على عكس هذا كله.

وكلما زادت معارفنا كلما زاد تقاطعنا، اللهم إلا بعض أناس ممن حنكتهم التجارب ودعتهم المشابهة إلى البحث في المنافع الوطنية والدينية فانبعثت قيم الحمية والغيرة، فهم أساتذة الوقت وعنوان كتاب الفضلاء، وإن لم يتصدوا للتدريس بالصورة المعتادة بين الناس. ولقد أثرت حركات أوروبا في الشرق وسرعة تقلبها في المظاهر الدينية والدنيوية في معظم شيوخ هذا العصر وشبانه؛ فتحركت فيهم همم وغيرة وحمية لم تكن تظن فيهم لو لم تقبح أوروبا سيرهم الديني والدنيوي فقابلوا بين نهيها عن

التظاهر بالشعائر الدينية وبذلها النفس والنفيس في حياة الدين والدعوة إليه ببث المرسلين وتكثير المعابد فتولدت فيهم روح المماثلة فأصبحوا يقولون وغدوا يفعلون.

بين المصريين والشاميين والعرب رابطة الغلة والسلطة في الكل، والدين في معظمهم، والجنس في أغلبهم، والمتاخمة التي تصير المجموع في حكم الوطن الواحد، فلم نرى الهمم مصروفة نحو التفريق وإحداث النفرة بين هذه الأمم المحتاجة إلى الجامعة الشرقية، ولو كانت الهمم مصروفة جهة توحيد الكلمة والاختصاص بالمصالح الوطنية لكانوا سدًّا محكمًا بين الشرق وبين المتهيئين للوثبة عليهم. إن كان النفور بسبب الدين فقد انتهى زمن الفتح ورسخت أقدام الأديان ورضي كلٌّ بدينه، فالسعي في النفرة بسببه سعي لمصلحة أوروبا لا للشرقيين. وإن كان بسبب الجنس فقد طال زمن الاختلاط والمعاشرة وكثر التوالد من المتغلبين من أجناس شتى على تلك الجهات حتى كدنا أن نوحد الجنس في سكانها. اللهم إلا في البلاد العربية التي لا يدخلها الخليط. وإن كان بسبب الوطن فقد علمنا احتياجنا لتأكيد الرابطة وتأليف النفوس، وإن كانت السلطة فكلنا أتباع سلطان واحد نأتمر بأمره وننتهي بنواهيه، اللهم إلا بعض أناس استمالتهم أوروبا فانتموا إليها فهم أجانب منا وإن تكلموا بلغتنا وسكنوا وطننا، بل وإن دانوا بديننا؛ لأنهم لا يقدرون على السعي في مصالح الشرق، ولا ينطقون بكلمة فيها

خير لأهله، فإنهم مقيدون بتعاليم الدول المنحازين إليها قيامًا بحق نعمتها عليهم. ولا يضرنا هذا الفريق إذا فتشنا جموعنا وأخرجنا الفريق الزائف من سبيكة المجموع الشرقي، وأخذنا في التواد الجسمي والتواصل القلبي حتى نرى المصريين من مسلمين وأقباط وإسرائيليين والشاميين والترك والعرب والجركس والأرنؤُط والفرس والهنود والأفغانيين وغيرهم تجمعهم المجالس للمذاكرة والمشاورة والاتحاد على مشابهة أوروبا في تقدم العلوم والصنائع والاتفاق على وجهة تتجه إليها الأفكار مهما تقلبت صور الحوادث؛ ليكون لنا مبدأٌ معلومٌ ومشربٌ محفوظ وغاية نسعى إليها، فإن أوروبا تحركنا كل وقت لهذا العمل وترمينا بفساد الأخلاق وخور العزيمة وعدم الثبات على عمل وحبنا للمفاخرة بما لا فخر فيه ولا شرف. وأُمم يدعوهم ما يرونه خصمًا إلى الطريق الذي سلكه حتى دخل بلادهم وهم قاعدون عن السعي، أُمم محتاجون لتخلل النبهاء مجالسهم، وجوس العلماء ديارهم، وبذل الأغنياء أموالهم، وصرف الأمراء هممهم حتى يتم تهذيب العامة ويعرف كل إنسان حده وحقوقه ويسعي كل شرقي في مصلحة بلاده ومنفعة إخوانه، مع المحافظة على الروابط التي ربطتنا بأوروبا، فقد دعت ضرورة التجارة والسياحة وحفظ السلم بين الدول إلى المعاهدات وتبادل الرحلة من وإلى الشرق والغرب. ووحدة الإنسانية رابطة كبرى بين جميع سكان الدنيا، فلو لم يكن بين الأمم من الروابط إلا الصورة الإنسانية

لكفاها ولكانت أقوى للروابط لحفظ نظام الدنيا العام. ولكن ما حيلة الإنسان فيمن يربونه على عداوة مثله، ويسقونه كأس البغضاء يوم فطامه من ثدي أمه فيخرج منكرًا على مثيله صورته، مدعيًا أن غيره وحشي الطبع همجي السير، وأن الإنسانية محصورة في حشو جلده.

وفي هذا الباب يحسن إسهاب أرباب الأقلام في حفظ الروابط وتبيين طرق التقدم وتفسير قول عمر بن عبد العزيز: (تحدث للناس أقضية بقدر ما يحدثون من الفجور). وكفانا من الخمول والقعود في الزوايا، وحط النبهاء بعضهم على بعض بغير فائدة تؤثر عنهم أو طريقة تنسب إليهم، وخوف الأغنياء من الإقدام على موارد الثروة، واحتجاب العظماء عن الأوساط الذين يبادلونهم المذاكرة تهذيبًا وتنويرًا، فهذا صوت أبنائنا ينادينا في كل بلد شرقيّ: أتتقلب الأمم بتقلب الأحوال ونحن نحن؟.

4
أشتات الشرق وعصبيات أوروبا

من[1] نظر في تقدم الشرق في الأعصر الأول قوة وعلمًا ومدنية، وتأخره مبتدئًا بالتقهقر من أربعة قرون مضت، قال: ما لهذه الأمم العظيمة صارت كتفاريق العصا، ورجعت شعوبًا وقبائل وبطونًا وأفخاذًا، وانزوى كل فريق في قطعة من الأرض اتخذها وطنًا فيها ولد وتربي وإن سرت فيه حمية آبائه عنها يدافع وفي إحيائها يموت، وبتعدد الجوامع الشرقية من جنس ولغة ودين ووطن نبذوا الوحدة الاجتماعية ظهريًّا، ومالوا مع الأهواء، وجعلوا المنافع الذاتية والسطوة الشخصية وجهة، فانحلت العرى التي ربطها الجنس العربي الذي دك كثيرًا من عروش أوروبا وجلس على كثير من كراسي ملوكها، وإذا نادى تلك الجموع الخاضعة إليه سمع لبيك لبيك الجواب العربي ممن جوابه(سي سي أو وِي وِي)، وطرد جياده من تهامة فسمع صهيلها في ليون من أراضي فرنسا وفي جميع أراضي إسبانيا

(1) مجلة (الأستاذ) جـ20 – السنة الأولي – الثلاثاء 15 جمادي الثانية سنة 1310 هـ – 26 كيهك سنة 1609 – 3 يناير سنة 1893م. ص 457 – 467.

والبرتغال وصقلية ونابلي وجزائر البحر الأبيض، وسمع صداء في خط الاستواء والممالك الهندية والفارسية والتركية والتركمانية، وإن شئت فقل لم تبق أُذن في آسيا وإفريقيا إلا وقد سمعت صهيل خيل الفريق العربي، حتى لهج كل ناطق باسم(الاءرب أو أرابو). ولتجرده من الانفعالات النفسية، وتحركه بروح الدين وقوة الملك سوَّى بين عربي وتركي وفارسي وهندي وقبطي وشامي، بل بين كل إفريقي وآسيوي، وضم الجموع تحت نظام واحد يرجع إليه رجوع الأبناء إلى أبيهم، فاختلفت المشارب والمذاهب وتوحدت الوجهة الملكية انتظامًا واستيطانًا ودفاعًا، فكنت ترى في المسلمين سنيين وشيعيين وخوارج ومعتزلة ودهرية ومعطلة ودروزًا، وكل قسم من هذه الأقسام يشتمل على مذاهب شتى، وترى في النصارى الروم الكاثوليك والأرثوذكس والمارونية والأروسية[1] والإنجيلية وفرق اليعقوبية[2] والنسطورية[3] واليسوعيين، وما في كل مذهب من الفروع والشعب، وترى في اليهود الهارونية والموسوية والقرَّايين والسامريين، وما في كل قسم من الفروع والأحكام المتغايرة، وربما رأيت كل هذه الأديان بأقسامها وفروعها في بلد واحد يجري كل إنسان في طريقه الديني

(1) الأريوسية: النصارى الموحدون.. أتباع آريوس (256 – 336م).
(2) هم السريان الأرثوذكس. ينسبون إلى أسقف الرها يعقوب البرادعي (541 – 578م).
(3) أتباع نسطور (380 – 451م).

غير معارض في شيء من أصوله أو فروعه أو عاداته، فإذا انتهى من العبادة عاد إلى المجتمع الملكي، وانتظم معه حزبه يؤيده برأيه أو يساعده بما له في الخصائص والمزايا، فإذا سمع الصيحة الجامعة انضم مع عصبيته إلى مجموع العصبيات الشرقية وطوي الخصائص المشربية تحت بساط الحاجة حتى يفرغ من صيانة الوطن والدفاع عن الملك، ثم يعود إلى حزبه يشتغل معه في صالح الوطن والمنفعة العامة من طريق المشرب الخاص تحت عناية عظيم يدبره وعاقل يرشده، فكنت ترى المسيحي والإسرائيلي يقاتلان مع المسلم من ماثلهما دينًا دفاعًا عن الوطن وشرف الملك لاستوائهما معه في الجوامع الوطنية والقوانين الملكية. وهكذا الشأن في كل إقليم وبلد. والقائمون بأمور الأُمة يربون الرجال تحت حضانتهم باحتكاك الأفكار والمشاركة في الأعمال وترقية المؤهلين إلى الرتب العالية بعد التجربة والاختبار والتمرين على شاق الأعمال والتربية في الإدارات المختلفة المواضيع. وبهذه العصبيات ارتفع كثير من العقلاء إلى رتب الوزارة والقضاء وولاية الأقاليم بأصوات حزبه أو جملة أحزاب تؤيد مبادئه وترجو حسن غايته، وانحط كثير ممن تحولوا عن الوجهة الوطنية والحق الدَّولي بسعي الأحزاب المخالفة لحزبه. والمدقق الخبير يجد هذا الاختلاف ظاهري الصورة، يرجع إلى غاية متحدة هي وقاية الوطن والملك.

وعند مخالطة الأوروبيين للشرقيين في الحروب الصليبية، التي عادت على أوروبا بكل خير ومنفعة، أخذوا عنهم هذه الطريقة السياسية، وانقسموا أحزابًا بين حرّ ومحافظ وجمهوري وملكي وكموني[1] ونهليست[2] وسوسيالست[3] ومتطرف ومعتدل، واتخذت كل عصبية وسيلة تتوصل بها إلي حياة الأمة وصيانتها وحفظ الوطن وامتداد سطوة الدولة ونفوذها في التخوم وما يصلح للاستعمار، فاختلفت الوسائل وتعددت العصبيات مع اتحاد الوجهة، فكان للمجموع مبدأ يبني عليه أعماله التي يريد الوصول إلى غايتها، وترقت هذه الأفكار عامًا فعامًا حتى انتهت بهم إلى انتخاب الوزراء بأصوات العصبيات، وعظمت ثقة الأهلين بالحكومات المقيدة بأصواتهم، فنفذت سطوتها في أقاليم كثيرة وممالك متباعدة، ووضع بيت الملك على أساس متين إذ صارت وقايته مفروضة على العصبيات بالمسابقة إلى التقدم الملكي. ولم يجر المجموع تحت حكم وزير يستعملهم آلة في تنفيذ آرائه، بل اتخذ كل فريق رئيسًا عاقلًا مجربًا محنكًا، وعلموا مبادئه وغاياته فصاروا أعضادًا ينصرونه ويؤيدونه وينادون به في الانتخابات وينهبونه على الأغاليط ويساعدونه على امتداد نفوذه المؤيد للدولة بكل ما يقدرون

(1) الكمونيست: الاشتراكيون.

(2) النهيليست: العدميون.

(3) السوسياليست: الاجتماعيون.

عليه، وكل رئيس يربي رجالًا يخلفونه إذا انقضى دوره، ويمدونه بآرائهم إذا قبض على زمام الأحكام.

وبهذه الوسائل المحكمة عظمت ثقة الملوك بالوزراء فأسندوا إليهم الأحكام موقنين أنهم يحافظون على الملك أعظم من محافظتهم لو استقلوا بالحكم والإدارة، حتى أنهم لو عينوا سفيرًا أو قنصلًا في جهة قالوا له إن سلفك وقف عند نقطة كذا الدولية، فإذا لم تتمكن من التقدم عليها فاجتهد في محافظتك على ما وصلنا إليه بهمة غيرك. ولهذا لا ترى دولة أوروبية تتقهقر في الشرق أو في جهة أوروبية إلا بقوة عظيمة مشكلة من مجموع دولي.

وفي مقابل هذا الاتقان البديع، مع علمنا بما عليه عصبيات أوروبا، لم نزدد إلا تقهقرًا بإعراض رجالنا الشرقيين عن تربية الخلف والأعضاد، ونوم الأفراد تحت ردم الغفلة أو الخوف الوهمي، فلا نسمع إلا عُزل فلان، وأُسند أمر الوزارة إلى فلان في الآستانة أو طهران أو مصر أو مراكش أو تونس، وإذا بحثنا في المعزول والمولَّى رأينا كلًّا منهما لا يقول إلا برأيه ولا يعتمد إلا على قوته العاقلة وتدبيره الذي كثيرًا ما يراه أحدهم صوابًا وهو خطاء عظيم، ونرى حول كل وزير ووال ومتصرف ومدير ومفتش ومأمور زُمرًا تُوسم بالمحاسيب، وهي أخلاط من الغوغاء والرعاع يستعملهم مع الجهل في الإدارات والوظائف فيعيشون في البلاد عيث الذئب في الغنم المهملة، فإذا عزل أحدهم جاء الثاني بمحاسيبه وطرد السابقين ووضع جماعته

مكانهم فيفعلون فعلهم غير مبالين بسوء ما يرتكبونه لعلمهم أن المنتهى إلى من لا يسألهم عما يفعلون، وبهذا ضاعت المصلحة الوطنية وتوزعت في الشهوات والأهواء، وصرنا نعد العقلاء ثلاثة أو أربعة في الآستانة واثنين أو ثلاثة في مصر، وإذا رأينا تخلخل وزارة أخذنا نهجس ونخمن فيمن يكون بعد الحاضر لعلمنا أنه لا يوجد من المرشحين المؤهلين لهذا المنصب إلا فلان وفلان، وهما لم يربيا أحدًا مدة توليهما الأحكام حتى يخلف الواحد منهم آخر من مشربه، فيسير بسيره ليتمم عمله الذي كان مشتغلًا به، وإنما كنا نرى هذا يشتغل بوضع اللوائح والنظامات وترتيب الأعمال والعمال وإحكام العلائق بين حكومته وغيرها ويسعى في توسيع التجارة والصناعة والزراعة بطرق سهلة، وقبل أن يتمم عمله يعزل ويخلفه من يخالفه مشربًا فيهدم ما بناه ويفسد ما أحكمه ويغير نظامه ويأخذ في مجاراته بإحداث أعمال تنسب إليه ويشتغل بما اشتغل به سابقه، وقبل أن يتمم عمله يُعزل ويأتي غيره على هذه الطريقة. وبهذا السير اختلت ممالك الشرق وكثر فيها الفساد وتمكن الأجانب والدخلاء من الرؤساء الذين لم يربوا أحدًا من أهل بلادهم وخافوا من العقلاء من قومهم، وظنوا أن استخدام الدخيل يقيهم فتنة الرعايا ويؤيد سطوتهم فيهم فأكثروا منهم فجاؤوهم بالمصائب. ولكننا إذا قابلنا أعمالهم بأعمال رجال أوروبا وجدناهم في خطأ عظيم، وقد تحملوا مسئولية أمم عظيمة بإهدارهم طرق الإصلاح. وإننا نرى الآن

المشابهة سرت في رجال الشرق فأخذوا يحاكون أوروبا فيما به يفرون من اسم الهمجية والتوحش وسعوا في جمع كلمتهم وعقد الجمعيات لفتح مدارس العلوم والصنائع وتهذيب النفوس وتعميم الآداب، ولكنهم مع بقائهم على التفرق وعدم اتخاذ مبدأ يبنون عليه أعمالهم لا تزال الأيام تقيمهم وتقعدهم وهم حيارى بين المقعد والمقيم.

فلابد أن يكون لكل عصبية وزير مدرَّب يرجعون إليه، فإذا أسندت إليه وزارة أعانوه وساعدوه وبثوا مبادئه وتعاليمه في العالم المحكوم ليقووا بذلك أعماله الداخلية والخارجية، فإذا خالف مبادئهم انضموا إلى العصبيات الأخرى وعارضوه برفع أعماله المختلة إلى الملك أو الأمير حتى يغير وجهته أو يتخلى عن الوظيفة ويتولاها آخر له مبدأ وطني أيضًا تؤيده عصبية أُخرى تحت مراقبة العصبية الثانية كما هو حاصل في بلاد الإنكليز الذين تخللوا ممالك الدنيا بأعمال حزبي الأحرار والمحافظين وإحكام سيرهما في توحيد الوجهة الملكية مع اختلاف الوسائل المؤدية إلى المقصد الإجماعي. نعم إن الآستانة ومصر ليستا متأهلتين للانتخاب وحرية الأفكار كما ينبغي، ولا تتوسع الحكومة بأكثر مما هو حاصل الآن، ولكن إذا اجتمعت الأمة على مبدأ وطني دولي غايته حفظ كرسي الملك الأمير الأعلى، وعقدت إجماعها على الخضوع إليه والرضوخ لأحكامه وتأييده مبادئه وتعضيد مقاصده وحفظ النظام الذي يبثه فيها، وربطت عزائمها على

حفظ مركزه ووجوده في منصة حكمه مؤيدًا باتحاد الأمة معضدًا بانقيادها مسرورًا بما يراه من الأمن وحسن المخالطة والمعاشرة أمكنها أن تعطي لجماعة من الأمراء جانبًا من الاعتماد على هذا الاتحاد والثقة بصالح نية العصبيات، فإذا علم الوزير منهم أنه مسئول بين يدي عصبيته عن أعماله، وهم يرون أن غيرهم يراقب أعمال رئيسهم انبعثت في الوزير حمية الخدمة الوطنية وتقوَّت أفكار عصبيته في مراقبته وبحث أعماله وتنبيهه على كل ما يؤاخذ به أو يلام عليه أو يوجب سقوطه من منصبه. وهذه الأماني وإن كنا لا نثق بالوصول إليها تمامًا في عصرنا، ولكننا إذا بدأنا بتأسيس المبادئ وتخصيص العصبيات وجرينا على ذلك الهوينا جاء من بعدنا على نظام لا يكلفه إلا القيام بما فيه. وهذه العصبيات والأحزاب لا يمكن تكوينها إلا من الوطنيين الذين دفنوا أجدادهم في البلاد، فهم يخافون أن تطأ خيل الغرباء تلك القبور الحافظة لعظام المجد الوطني والشرف الملكي، ففي مثل بلاد الدولة العلية غير الممتازة تتكون من الترك والعرب والجركس والكرد والأرمن، وفي مثل مراكش والجزائر وتونس تتكون من العرب والإفريقيين، وفي مثل مصر تتكون من المسلمين والأقباط والإسرائيليين، وفي مثل طهران تتكون من الفرس والكرد، وهكذا تتكون العصبيات من أهل كل وطن، ويعقدون عزائمهم أوّلًا عقد إجماع على تقديس مناصب الملوك والأمراء، ثم يبحثون فيمن يمشي بهم في طريق حفظ الملك أو

الأمير من كل ما يمس أي حق من حقوقه المقدسة. ولا يفهم غبي من ذكر العصبيات والأحزاب أن المراد عصبيات إفساد أو أحزاب فتن وحروب، فإن ذلك محض الجنون؛ لأننا محاطون بدول أوروبا وإن كنا في قطعة شرقية، وقد امتلأت بلاد الشرق وممالكه بالأوروبيين متجرين وسائحين ومعلمين وصناعًا، ومع هذا الاختلاط القاضي بالمحافظة على الأمن والراحة فإن افتراق ممالك الشرق واختلاف كلمة معظم أهله يقضي عليهم بالعدول عن كل فتنة توقعهم في حرب أوروبية لا يقدرون على اقتحام عقباتها لاتفاق ممالك أوروبا عليهم واختلاف ممالكهم الشرقية، مع فقد المعدات والمواد الحربية، وإذا كان ذلك مرسومًا بين أعين العقلاء منا استحال تصور التجمع لفتنة أو لمعاكسة دولة أوروبية، وتعين فهم مجاراتنا لأوروبا في اتخاذ طرق المدنية، خصوصًا ونحن معاشر المصريين بين يدي أمير سكنت محبته قلوبنا وتخللت أجزاء ذواتنا وتعلقت آمالنا بهمته العالية وأفكاره المنيرة، ولكننا لا ننسى أننا تحت مراقبة دولة عظيمة تسعى في تقدم مدنيتنا وتوصيلنا لمعرفة حقوقنا الوطنية وتبذل جهدها في نشر التعاليم الأوروبية في أنحاء بلادنا وتفتخر وزراؤها ووكلاؤها بأنهم أوصلونا إلى المدنية وعلمونا كثيرًا من طرق الإصلاح التي كنا نجهلها ونبهونا للمطالبة بحقوق خديوينا المفخم ووطنا العزيز وأرشدونا إلى طرق حرية الأفكار والمجامع، فعملًا بهذه العلوم النفسية واتباعًا لنصائحها واقتداءً برجالها

ينبغي أن نقابل سعيها بالتظاهر أمامها بثمرات أتعابها ليكون فخرها بين الدول بنشأتنا الوطنية وعصبياتنا المصرية أكبر وأعظم وليعلم العالم المدني الأوروبي أنها وعدت ووفت، وإلا فإن بقيت على اجتهادها وبقينا على تقاعدنا كنا علة لما لا نحبه ولبسنا ثوب عار بين الأمم وأصبحت الدولة المراقبة لنا تبكتنا وترمينا بفساد الأخلاق وجبن الطباع وعدم الاقتدار على الاختراع[1]. فعلينا معاشر المصريين خصوصًا والشرقيين عمومًا أن نبحث في طرق أحزاب أوروبا وروابطهم وكيفية سيرهم وموجب استمرارهم على ما هم فيه ونقلدهم بسير لطيف واعتدال في الحركات والسكنات مع لزوم الهدوء وحسن الانقياد والمحافظة على حقوق الأجانب والنزلاء والانتباه لدسائس الدخلاء وفتن الأجراء[2]، ولتكن لكل فريق جرائد تنشر أعماله وتؤيد أقواله وتبين له دسائس بقية الجرائد وتنبهه على ما يجب اتخاذه مما تراه صالحًا، آخذة أفكارها عن مجموع أعمال الحزب أو آراء عقلائه بحيث تلزم مشربًا لا تتحوَّل عنه بتحوُّل الأحوال، ولا تتلون أمام

(1) لقد كان النديم مضطرًّا لهذه الملاينة مع الإنجليز- وهي التي تبدو غريبة عن موقفه من الاحتلال- ولكنها كانت شرطًا لبقائه في مصر، وإصداره لمجلته- (الأستاذ)- ومع ذلك لم يتحمل الإنجليز سعيه للإصلاح، فاضطر إلى إغلاق مجلته، وإلى الهجرة حتى مات- في الآستانة- بعيدًا عن وطنه مصر.

(2) الأجراء: هم الذين كانوا يعملون في خدمة سلطات الاحتلال، والذين حرضوا هذه السلطات ضد النديم.

حزبها بتلون المطامع، ولا يلزم من اختصاصها أن تكون مضادة لغيرها من الجرائد في كل ما يكتب فيها، فإن الجرائد مدارس الأفكار ومعارضتها إقفال لباب التعلم الأدبي، وإنما تحافظ على مبادئ حزبها، وتجاري الجرائد في المقالات العامة والأفكار النافعة، وإلا إذا تركت الأحزاب والجرائد وأخذت كل ما يقال بالقبول من غير بحث في مصدره وما تحته من الدسائس تحول مجرى سيلها الوطني إلى الأودية الأجنبية، ووقعت في أشراك أوروبا وهي لا تشعر، ولتكن المجامع مطهرة من ذوي الأفكار الفاسدة محفوظة من الطائرين خلف المحسنات الأوروبية مصونة من التخاذل والتباغض، متعلقة برئيس لا يختلف في استحقاقه للرياسة اثنان، فإننا إن فعلنا ذلك قالت أوروبا قد عمَّت المدنية واستوى فيها أشتات الشرق وعصبيات أوروبا.

5
لَوْ كُنْتُم مِثْلَنا لَفَعَلْتُم فِعْلَنَا

هي[1] كلمة أوروبا التي ترددها على أسماع الشرقيين كلما فعلت فعلاً يحملها عليه الاستعمار الملكي أو الانتشار الديني، وقد أحكمت التأليف بين القوتين الدينية والملكية، فجعلت الأولى سفير وداد والثانية فارس جلاد[2]، وقد أضاف كل ملك أوروبي إلى عنوان الملك حماية الدين فيقول في مخاطباته ملك أو إمبراطور كذا وحامي الدين المسيحي، أو عبارة أشد وقعًا في النفوس من هذه ليعلم الأمم أنه القابض على زمامي السياسة والدين، فيؤيد رجال السياسة بتنفيذ ما يرونه من لوازم تأييد الملك واتباعه، ويساعد رجال الدين بما يبعث فيهم الغيرة على بثه والدعوة إليه، فنرى رجال القوة ماشين على نسق واحد كل فيما فوض إليه، لا تفتر لهم همة،

(1) مجلة (الأستاذ) جـ22 – السنة الأولى– الثلاثاء 29 جمادى الثانية سنة 1310 هـ، 10 طوبة سنة 1609 – 17 يناير سنة 1893م – ص 507 – 533.

(2) في هذا الذي كتبه النديم تمت مراقبة سلطات الاحتلال الإنجليزي، كان هجومه على الاستعمار الأوروبي، وعلى التنصير، عنوانًا يشمل تحته الهجوم علي سلطات الاحتلال الإنجليزي في مصر.

ولا ترقد لهم عين عن وظائفهم التي فيها حياة الدين والملك وزيادة شرف الأمم. والأمم لكونهم أدركوا ما قصده الملوك ورجال السياسة وخدمة الدين اندفعوا معهم اندفاع السيل في المنحدرات، فعقدوا الجمعيات الدينية والعلمية والصناعية والتجارية والزراعية والسياسية، وأخذ كل فريق في إحسان ما كلف به نفسه وأوجبه عليه مجاراة جاره في الملك ومباراة نظيره في العلم أو العمل ومسابقة غيره ممن قصدوا قصده فاشتغلوا بما اشتغل به. وقد بلغوا القصد في بلادهم وخرجوا من بلادهم محمولين على قوتي الدين والملك سائرين على نور العلم والصناعة فدخلوا الأقطار الشرقية سائحين ومتجرين، واستوطنوها مراقبين ومتغلبين، وجرائدهم الكثيرة العدد برزت تتسابق في ميادين الإنشاء بمواضيع مبتكرة ومقالات مطولة وعبارات مزينة فأصبحت ناقلة للأخبار، ناشرة للآداب، معلمة للعلوم، ومؤيدة للمبادئ، حاثة على المقاصد، منشطة للهمم، مرشدة للأمم، منبهة على الأغاليط، محذرة من التقاعد والتكاسل والغفلة عن وثبة الجار أو معاكسة المتاخم، ناشرة للفضائل، مؤرخة لرجال الفضل والعمل، حافظة لسير الملوك داعية أفراد الأمم إلى ما فيه خير البلاد وتأييد الدين، خادعة للشرقيين، لاعبة بأفكار رجالهم، خاتلة لعظمائهم، مقبحة لما هم عليه من دين وسير ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة وزراعة، منادية بينهم بأن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل لا حياة للأمم إلا

بما تأخذه عنه، ولا مجد لمن لم ينتمِ إليه، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه، ويتعبد بعبادته، ويتقيد بعاداته. هذه كليات تحتاج لبيان جزئياتها التي لا تحتاج لبرهان بعد ظهورها للعيان.

قالت أوروبا إنكم متوحشون لكونكم لا تحسنون صنع الأثاث واللباس، وإنكم في حاجة إلى مصنوعنا، ولا تصلون إليه إلا بعقد المعاهدات التجارية وبذا تمكنت من إدخال مصنوعها في الشرق، لتحول الثروة إليها، فأماتت ما كان يصنعه الشرقيون، وحجرت على ما لابد منه من صناعة الشرق الهندية وغيرها، فما يصنع في الهند والصين والعجم والأناطول وغيره إنما ينفق ويباع على يد الأوروبي كما يباع وينفق مصنوع بلاده، فالشرقيون أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون ليروجوا تجارة أوروبا ويعظموا ثروتها ويؤيدوا قوتها الملكية بالإيرادات المالية، فلا حظ لهم في الوجود، ولا رغبة لهم في الملك، كأنهم أمام أوروبا جنس خلق لخدمتها لتقاعدهم عن مجاراة أهلها، ومما زادهم بعدًا عن الصناعة وثمراتها وجود دخلاء أُجراء يزعمون أنهم نصحاء، يثبطون الهمم، ويرمونهم بالضعف ويوهمونهم عدم صلاح بلادهم للصناعة، ويغرونهم بتعذر ذلك لتعذر المعدات والآلات، وهم يعلمون أن كثيرًا من الممالك التي لا آلات فيها استعانت بآلات اشترتها من الغير وأحيت صناعتها الوطنية، وحتمت على أهلها شراءها لرواج صانعيها، ومنعت دخول مصنوع الغير حفظًا لثروة

أهلها، فهم بصرفهم الهمم بهذه الترهات يريدون بقاء الشرقي في قبضة الغربي احتياجًا إليه، وترك الشرق ميدانًا لمسابقة رجال أوروبا، فلا يجدون مصنوعًا يعطل عليهم، ولا معرضًا عن صناعتهم فتبور. وضعفاء العقول يغترون بخداع هذا الدخيل، ويظنون أنه من المخلصين، فلا يتحركون لعمل من الأعمال لوقوعهم في اليأس والقنوط بالمفتريات، ورجال أوروبا تتعجب من تقاعدهم وتقول: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

قالت أوروبا: إن وقوفكم عند عاداتكم الشرقية، وتخلقكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش، فلابد من مجاراتنا في حركاتنا المدنية لتساوونا في الرتبة، وفتحت لنا البيَر والخمارات والمقامر، وأباحت الزنا والربا، ووسعت دائرة اللهو والخسران، فغفل الشرقيون عما وراء ذلك من ضياع الدين والملك والمجد والشرف، وانكب الأغبياء والمغفلون على الخمور فساءت أخلاقهم وضعفت عقولهم وفسدت عقائدهم وتحولوا إلى المومسات فارتكبوا الإثم بارتكاب المحرم والعار باتخاذهم أختهم الوطنية آلة للفحش، وجعلها عرضة للأجنبي بعدم غيرتهم عليها، فهم في رتبة القواد، بل هم هم، ومال فريق إلى القمار فباع الغيط والدار واضطر لبيع حلي زوجته برضاها أو بسرقته منها، والكل عطف على المرابين يقترض ويصرف في الملاهي ومتلفات العقل والجسم والملك حتى أسكن الأوروبي مكانه، وصار له خادمًا بعد أن كان عظيمًا محترمًا، وكلما

تهالك الشرقيون على الخمور والملاهي واصلت أوروبا رسائل الخمر، وارتحل إليهم المومسات وأرباب الملاهي تحويلًا للثروة وإزهاقًا لروح الدين، حتى أصبح المتلبسون بهذه القبائح والفضائح لا شرقيين ولا غربيين، واتخذتم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق، وهي تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية، وما هي إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة، إذ لو كان الانغماس في الملاهي ومفسدات العقل والدين من المدنية لما تحاشته أوروبا وعدّت مرتكبه همجيًّا جاهلًا مجنونًا، ولما وضعت القوانين الشديدة للمسكرات ومنع التلامذة منها، ولما كتبت الرسائل العديدة في ذم الخمر والفسوق وحرمان ضعفاء العقيدة والمتقاعدين عن العبادة وحضور الكنائس، وإنما هذه أشراك وفخاخ تنصب في طريق الشرقي حتى لا يخطو خطوة إلا وقد وقع في حبالة أوروبا.

ولما رأت أوروبا أن الشرقيين لا ينتبهون من غفلتهم، ولا يعقلون مقاصد الدول، ولا يدركون مكايد الملوك، ولا يسعون في صالح بلادهم، ولا يحافظون على دينهم، ولا يعرفون شرف لغاتهم، ولا يحفظون كراسي ملوكهم، ولا يهمهم ضياع أوطانهم، اتخذتهم كرة تلعب بهم كيف تشاء، وهي تقول لهم: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

قالت أوروبا: إن الشرق في حاجة لتداخل أوروبا لإصلاح إدارته

وماليته وتجارته وتهذيب أُممه بالتعاليم الأوروبية، وأجمع رجال أوروبا على جعله قسمًا مقابلًا لها وربطوا عزمهم على ضمه إليهم الجزء بعد الجزء والقطعة بعد القطعة، على اتفاق معقود بين الدول، هذا لي وهذا لك، ثم تلووا في الدخول فيه تلوي الأفعى، وملكوا بعضه بالتجارة والبذل المالي وبعضه بدعوى مسّ حَقّ دولة أو إهانة بواب قنصل أو حفظًا لطريق مملكة. والداهية الدهياءُ أن ملوك الشرق وعظماءه ملئوا قلوب أُممهم بالأوهام، وخوفوهم من الأوروبي، وأرهبوهم باسم اللورد والبارون والكونت والمركيز والجنرال والأميرال والسير والماجور حتى خيلوا لهم أن الأوروبي ملك يمكنه قلب المملكة أو جنيٌّ يقدر على حرقها فامتلئوا رعبًا وخوفًا، ولبسوا ثوب ذل وهوان، وذلك بسبب المعاملة التي يعاملونهم بها في وقائعهم مع الأوروبيين، وقد اضطروا كثيرًا من الوجهاء والنبهاء الذين ينتفع بهم الوطن والملك إلى الاحتماء بالغير تفاديًا من تلك المعاملة، فكانوا أقوى يد للأوروبي في تداخله واستيلائه على ممالكهم. فلو ربوا رجالهم علي الحماسة، ومرنوهم على الأعمال، وبعثوا فيهم روح الحمية بالمحافظة على حقوقهم وترقيهم بحسب استعدادهم، وساعدوهم على انتشار الصناعة والتجارة وهذبوهم بالأدبيات، وصانوهم من المفاسد العقلية، وعلموهم العقائد الدينية، وعودوهم على الشعائر الملية، ونبهوهم بجرائد وطنية صادقة اللهجة صافية النية عارفة بما يقدمهم وينفعهم،

وأوقفوهم على تواريخ آبائهم، ومسابقات الدول في بلادهم، ودسائس أوروبا، وحذروهم من رجال الفتن والأجراء الذين يخدمون أوروبا باسم المصلحة الشرقية لوجدوا أمامهم رجالًا وأي رجال، ولكنهم أهملوا ممالكهم، وأهدروا حقوق رعاياهم، فأصبح ملوك أوروبا يفخرون عليهم ويعيرونهم بما صاروا إليه من الضعف والاضمحلال، ويقولون: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

ولا لوم على الأوروبيين في ذلك، فإنهم إنما يسعون في مصالحهم واتساع ممالكهم وتجارتهم، والشرقيون يرونهم يعملون الأعمال العظيمة في بلادهم، وهم ينظرون إليهم نظر المغشي عليه من الموت ولا يتحركون لمجاراتهم أو لإيقاف تيار تداخلهم، ويرونهم يسلبون أعمال أمرائهم وولاتهم عملًا فعملًا، وهم ناكسو الرؤوس منكمشون في ثيابهم. تسمع منهم أصواتٍ عالية في خلواتهم يظنها السامع أصوات أناس حريصين على المجد والشرف، فإذا خرجوا إلى الطرقات ساقهم أضعف أوروبي بعصاه، وهم بين يديه كأنهم قطعان الأغنام تساق إلى الحظائر. بمن نقيس الجزائري إذا شاركه التونسي والهندي والمصري والقبرصي والعدني والمسقطي والزنجباري والبرنوي والبخاري والمروي، والطاغستاني والتركماني والسرخسي وقابله المراكشي والأفغاني برعدة الخائف الوجل، ونظر إليه العجمي والعراقي واليمني والحجازي والنجدي والشامي والسوري

والطرابلسي والأناطولي نظر المتوجس الحذر الذي تبعثه الهمة وتقعده القلة كلما شموا رائحة السلم من دولة جاءهم إنذار الحرب من أخرى سعيًا خلف الدين لا طلبًا لسعة الملك، فإنه لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التي هي جزء منها في الحقيقة، ولكن المغايرة الدينية وسعي أوروبا في تلاشي الدين الإسلامي أوجب هذا التحامل الذي أخرج كثيرًا من ممالك الدولة بالاستقلال أو الابتلاع. وإننا نرى كثيرًا من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الحكام، ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتًا، وأحسنها تبصرًا، وأقواها عزيمة، فإنها في نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدواني لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثماني عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان، وكثير من اللغات، والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهبًا أو يقرب منهم جنسًا. وكل دولة طامعة في قطعة تحتلها باسم المحافظة على حدودها أو وقاية دينها، مع اتساع أراضيها وعدم وجود السكك الحديدية المسهلة للنقل والتحول، وعدم وجود أنهر مستمرة الفيضان في غالب أراضيها، ووجودها تحت رحمة الله تعالى إن شاء أمطرها فأخصبت أو منعها فأجدبت. وهذه أمور لو ابتليت بها أعظم دولة أوروبية ما قاومت هذه

الصواعق أكثر من عام أو عامين وتسقط أو تتلاشى. ولكنها تلام على إعطاء السكك الحديدية التزامًا للأوروبيين بواسطة أناس يزعمون أنهم من رعيتها ظاهرًا وهم فرنساويون أو إنكليز باطنًا، فإن السكك الحديدية بالنسبة إلى المملكة كالشرايين بالنسبة إلى الجسم، فهي من أعظم العلل التي ستتخذها أوروبا وسيلة للتداخل باسم وقاية أملاك أتباعها. ومن لنا بكف يد الوزراء عن مثل هذا التعاون، ويكفي ما جرى وما ذهب منا سدي، فإن ارتكنا على الشروط فقد ارتكنا على أوهن من العنكبوت، فإننا لم نقدر على تنفيذ عهدة برلين فيما يختص بنا وقد وقع عليها الدول، فكيف ننفذ شروطًا بيننا وبين رجال جعلتهم الدول ذرائع للتداخل ووسائل لأسوء المقاصد. ولقد أذهلتنا أعمال أوروبا التي لم تسمح لشرقي بامتلاك شبر في أرضها وهي تخرجنا من مساكننا وتقيم فيها بلا شروط معقودة ولا حجة مسجلة، ولكنها معذورة فإنها لم تجد من يعارضها أو يجاريها فهي لا تعترف أننا معها في ثوب الإنسانية، بل تقول: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

إن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدًا شرقيًّا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية، وتنادي أول دخولها أنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد، ثم تأخذ في تغيير الاثنين شيئًا فشيئًا، فلا تقدم على العمل، بل نفعل الشيء على قبول التجربة، فإن نفذ فقد مضى، وإن عورضت فيه التزمت التأويل، كما تفعل فرنسا في الجزائر وتونس حيث

سنت لهم قانونًا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامي، بل تنسخ مقابلها من أحكامه، ونشرته في البلاد، واتخذت لتنفيذه قضاة ترضاهم، ولما لم تجد معارضًا أخذت تحول كثيرًا من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام، توسيعًا لنطاق النسخ الديني، ولم نلبث أن جاريناها وأخذنا بقانون يشبهه إن لم يكن هو هو، ولم ينتطح في إصلاح مواده المخالفة عنزان، ثم تداخلت في الأوقاف واستولت على غلتها ومنعت المستحقين، وطردت كثيرًا من خدمة المساجد اقتصادًا ماليًّا وتخفيفًا دينيًّا، ثم رفتت ضباط العساكر الوطنيين الكبار واستبدلتهم برجالها خوفًا من ثورة يدفعونها بها عن بلادهم أو يحمون بها دينهم، ثم حجرت على المدارس تعليم بعض علوم شرعية وألزمتهم بتعلم لغتها، والأخذ بالطبيعيات والرياضيات حتى لا يشم الأبناء رائحة الدين، لئلا يعلموا أنهم يغايرونهم دينًا فيثورون عليهم أو يلتجئون إلى دولة أخرى، وهذه عواقب الالتجاء إلى دول أوروبا والاغترار بوعودها الخلبية وشروطها المكتوبة بالماء على صفحة الهواء.

وهذه دولة الروسيا دخلت مرو وهراة وبخاري باسم حمايتها من أعدائها، وبعثت إليها بتجارتها فنفذت، ثم برجال يساكنون أهلها فمضوا، ثم بعساكر في الحدود فأقاموا، ثم بشروط تربطها بها فأمضيت، ثم هي آخذة في تقدم لغتها هناك؛ توصلًا لإعدام اللغات الوطنية التي يموت بموتها الدين وحمية الجنس والغيرة الوطنية. وهذه إنكلترا دخلت مصر

باستدعاء أهلها وأخذهم بناصرها بعلة تأييد المركز الخديوي الشريف، ثم زيد على تلك العلة علة بث النظام ووضع حكومة ثابتة تشابه حكومات أوروبا، وقد بذلت ما في وسعها في التحسين والتنظيم بما يتراءى لها، ولم تجد غير آذان سامعة وأيد عاملة، ولكننا مع كثرة سماعنا وتعليمها لنا لم نقلدها في شيء مما دخلت لبثه فينا، بل تركناها تفعل أفعالها ونحن نتفرج عليها كأننا في ساحة سيماويٍّ يرينا من أعماله العجائب ونحن في حيرة من ألعابه المدهشة. ومن جهل أعمال إنكلترا في مصر بيناها له ليرى أنه حقيق بما يوجهه إليها من النكير.

أوّلا: أطلقت حرية المطبوعات والأفكار فرأينا الجرائد الكثيرة تتكلم بما تريد وتتصرف في أفكارها كيف تشاء. هذه تقول أنا وطنية أُنادي بأن خير البلاد وصلاحها موقوف على جعل الأعمال بيد المصريين تحوطهم عناية الحضرة الخديوية الجليلة تحت مراقبة بريطانيا. حتى إذا رأتهم قاموا بحكومة ثابتة مؤيدة بالقانون الحق النافذ وفت وعدها وأجلت جندها وتركتهم يتمتعون بحريتهم في بلادهم كما تتمتع البلغار والجبل الأسود والسرب وغيره مما هو أقل من مصر بكثير والأمة مرتاحة لها. وهذه تقول مصلحة البلاد موقوفة على زيادة نفوذ الإنكليز ووضع الإدارات تحت أيديهم بمساعدة النزلاء حتى يتهيأ المصريون لاستلام أعمالهم، لا تبالي رضي عنها المصريون أو غضبوا منها. وهذه تقول إن فرنسا هي الدولة

الوحيدة في المحافظة على مصر وحقوق السلطان فيها وتأييد الخديوي، ولا يضرها إلا وجود الإنكليز فيها. وهذه مذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهذه علمية تهذب النفوس، وهذه تورد لهم من مصادرات الأديان ما يوقعهم في الشك والتردد، وهذه دينية، وهذه حقوقية، وهذه طبية. ثم تركت المصريين يغدون ويروحون بين هذه المتناقضات وهم يتناظرون ويتجادلون لا رقيب عليهم ولا جاسوس، ولما رأت أن كثرة المؤثرات الفكرية لم تنبههم على طلب حقوقهم وظهورهم أمامها بالتظاهرات الأدبية استدلالًا على استعدادهم للقيام بأعمال بلادهم، تركت الجرائد تخوض في المواضيع المتضادة وتلعب بالأفكار الجامدة، ونحن في بحار اللهو غارقون.

ثانيًا: إنها كفت يدها عن الأعمال عند دخولها مصر وسلمتها إلى المصريين ظاهرًا لتقيم الأدلة لأوروبا أنها ما دخلت إلا لتراقب المصريين وتشير عليهم بما فيه التوفيق بين مصالحهم ومصالح الدول، ولما لم تجد أمامها من يجعل هذا الظاهر باطنًا بحصر السلطة في الذات الخديوية الفخيمة والإدارات في الوطنيين أخذت تقول وهم يفعلون حتى أصبحت تفعل وهم لا ينطقون، وكانت تتقي باسمهم المطاعن الأوروبية حتى خلا الجو وأمنت الاعتراض فأخذوا يذمونها ويرمونها بخلف الوعد ونكث العهد وعدم الصدق وطول الباع في الخداع، وهم غير محقين فإنها ما دخلت إلا

لتعمل عملًا أمام أوروبا، فلما فوضوا إليها الأعمال استلمتها بهمة ونشاط. ومثلها ومثلهم كمثل لص دخل دار قوم وقال لهم حملوني ما عندكم من أثاث وحلي وآنية، فأخذوا يحملونه ما يريد من غير معارضة، فهل إذا دخل عليه البوليس وأهل الدار يحملونه بأيديهم يقول هذا لص؟ كلا، بل يقول إنه صاحب الدار وهؤلاء خدمه. أيرون أن الإنكليز هم الذين نشروا منشور المومسات ورخصوا للنساء أن يخرجن للبغاء تحت حماية القانون. أم هم الذين سنوا كشف الأطباء على البغايا وإعطاءَهن شهادات بأنهن صالحات للزنا، فهتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوراة بتحليل ما حرمه الله تعالى في كل كتاب. أم هل قالوا للمصريين ستنفق ملايين في المقاولات والأعمال الهندسية من غير أن نسأل عما نفعل فيها، فإياكم والسؤال عن مبالغ ستكونون عبيدًا مكلفين بسدادها إلى روتشلد[1] وغيره. أم هم الذين أعطوا الالتزامات الوابورية والأرضية ووسعوا نطاق المعاهدات إلى أن ضيقوا كل عمل مصري. أم هم الذين منعوا المصريين من زراعة الدخان والحشيش لتروج مزارع أوروبا بخراب بيوت هؤلاء الضعفاء. أم هم الذين باعوا مهماتهم وآلاتهم بغير ثمن، وربما أعطوا من أخذها شيئًا يستعين به على نقلها حتى تركوا البلاد محتاجة لمن يحرسها بالعصا أو النبوت. أم هم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة وحشروا الغرباء في المصالح حتى

(1) روتشيلد. مصرف يهودي، يعود تأسيسه إلى ماير أنسلم روتشيلد (1743 – 1812م).

أصبح ألوف من المصريين لا يجدون القوت ولا يعرفون لاستخدامهم مرة ثانية سبيلًا. أم هم الذين قللوا من تلامذة المصريين في مدارسهم وأكثروا من استخدام الأجانب فيها وتدرجوا لإماتة لغتهم الوطنية بفرض المكافآت لمن ينبغ في الإنكليزية لتنسى لغة القرآن، فينسى بها الدين الواقف عقبة أمام أوروبا كما يصرحون بذلك في مجالسهم وأندية شوراهم. لا والله ما نالوا أملًا، ولا قارفوا عملًا، ولا أذلوا رجلًا، ولا خربوا بيتًا، ولا هتكوا حرمة إلا بالمصريين.

ماذا على الإنكليز إذا سعوا في ربح تجارتهم واستخدام أبنائهم ولم يجدوا عائقًا، أيرجعون وهم لهذا مرتحلون؟!. ومن يلومهم إذا وجدوا طريقًا لتوسيع ممالكهم لا خوف فيه ولا عقبات، أيتركونه وهم في جميع بلاد الدنيا طامعون؟!. كانوا يرون أن المصريين إذا رأوا دولة حرة دخلت بلادهم لتأييد خديويهم وإصلاح بلادهم، وتعريفهم حقوقهم بين الأمم تجمعوا حول أميرهم حاملين كرسي فخامته على رؤوسهم، منادين باسمه قائمين بتنفيذ أوامره محافظين على حقوقه مستميتين في اختصاصهم بأعمالهم والقيام بشعائر دينهم، مجتهدين في حفظ الأمن وخدمة البلاد، حافظين لحقوق الأجانب والغرباء النزلاء والمجتازين، جاعلين محافلهم التي استخدمتها أوروبا في مصالحها محافل وطنية تستخدم أوروبا في مصلحتهم فكانت تساعدهم على هذه الأمور التي تعهدت لأوروبا أن

تعلمها للمصريين وتؤهلهم إليها، ولكنها رأت غير ما ظنت فلا لوم عليها إذا وضعت قدمها على عمائمنا لتعلو جواد الفخر والخيلاء.

لماذا نتألم من أعمالها وأمراؤنا اقتصروا على القعود في القصور وركوب العربيات للتفسح في المنتزهات، وعقلاؤنا صامتون لا ينطقون بكلمة رجاء أو صوت استصراخ، وضعفاؤنا حيارى ينتظرون هؤلاء وهم عنهم لاهون، ونبهاؤنا في المحافل يتحاورون ويتناظرون بما لا يفيد الوطن والملك شيئًا متعللين بأن محافلهم لا تتعرض للسياسة ولا للدين، فإذا انصرف النبهاء عن وجهتي السياسة والدين فبمن تقوم الأعمال ويتقوَّم أود الحكومة، ويبقى عمود الدين قائمًا كبقية الأديان. أبالإخاء الذي ربطناه بين الأجنبي نتخلى له عن مرجع المجد وأصل الشرف؟. وهل تريد أوروبا أن تنتصر علينا في حرب عوان بأكثر من صرف نبهاء البلاد عن النظر في الملك والدين ليخلو لها الجو فتفعل ما تشاء وتغير ما تشاء مع أن النبهاء يمكنهم أن يستخدموا محافلهم في مصالح بلادهم، فيتمكنوا بقواهم العقلية مما لا يمكنهم منه سيف ولا مدفع من غير إثارة فتنة أو إراقة قطرة دم، ويصلحون ما أفسده الاغترار والانخداع، ويحدثون في البلاد عصبية وطنية لا تردها أعظم أمة عن شربها المصري وسعيها المؤيد بربط القلوب على عزيمة واحدة صادقة. وما الذي استفاده النبهاء المصريون من الأخلاط والأمشاج غير تقدم الغير وتأخرهم، واتخاذنا بيت مال لفقرائهم وعجائزهم.

دعونا من المجاملة في الكلام والتستر بما استهجنه العقلاء، ما ابتدعت المحافل إلا لتصير الممالك دستورية، وقد نجحت في ذلك وقلبت كثيرًا من ممالك أوروبا، وحيث إننا بين يدي حكومة دستورية فلِمَ لم نؤيدها بعصبية وطنية ونظهر من أعمالنا ما تفتخر به إنكلترا أمام أوروبا، وإلا فإن بقي الأمراء في البيوت والنبهاء في المحافل على ما هم عليه، والعقلاء صامتين، والضعفاء طائرين حول أوهام الأجنبي وإرهابه، والخديوي الأعظم ينظر إلى هذه الجموع نظر الأب الرحيم إلى الأبناء العاقين، فلا نعترض على بربر إفريقية فضلًا عن الإنكليز إذا جاءوا وأخرجونا من مساكننا وأبعدونا عن عائلاتنا وتمتعوا بما نخلفه لهم من عرض ومال ومتاع وعقار.

مضت والله أيام التقاعد والاغترار بالترهات، وصرنا بين يدي خديوي يريد أن نجاري الإنكليز في الأعمال الإصلاحية والمطالبة بحقوقنا الوطنية، ونحن عن إرادته السَّنية ساهون. ويجب أن نتقدم في التجارة والصناعة والزراعة والمعارف ونقبض على أزمة أمورنا ونحفظ عرشه المصري بالمصريين، ولكننا عن نظره العالي عمون. يتألم من ضياع المصري والاستخفاف به وتركه في زوايا الإهمال أكثر من تألم المبعدين، ولو أحسسنا بما عنده من الآلام لبتنا لمضاجعنا جافين.

إن أوروبا تنظرنا من بعيد لترى أعمالنا وما نتقلب فيه من الأحوال وما تهدينا إليه إنكلترا مما نؤيد به الخديوي الأفخم كمنشورها التداخلي،

ونحن عن هذا كله لاهون. كفوا أيها المصريون عن القيل والقال فقد عيرتنا الأمم بأننا نقول ولا نفعل، وأظهروا بين يدي إنكلترا برجال يسرها تجمعهم حول أميرهم الذي جاءت تؤيده، واطلبوا منه حقوقكم المقدسة، واشكروا إنكلترا على ما أوصلتكم إليه من الحرية التي تركتكم تتظاهرون تظاهرًا أدبيًّا طلبًا للحقوق وسعيًا خلف الحقائق والامتيازات الوطنية، فإن كل إنكليزي يراكم في هذا التقاعد وهو يدأب في عمله الليل والنهار يقول: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

كلكم قائل (بيدي لا بيد عمرو) مضت السنون العشر التي قابلتم غرتها بالأفراح والزين، وطرتم فيها حول الأوهام طربًا وسرورًا، وعميتم عن سوء العاقبة، فأنشد شعراؤكم القصائد الطنانة الرنانة مدحًا وثناءً، وشربتم الخمور جهارًا باسم من استعديتموهم على بلادكم ونصرتموهم بتثبيط إخوانكم، وبذلتم أموالكم وأرواحكم في دخولهم البلاد والتخلي لهم عما بأيديكم من الأعمال ولطالما طأطأتم الرؤوس وحنيتم الظهور وركعتم أمامهم تعظيمًا وتسليمًا، وبصقتم على وجوه إخوانكم، ولبستم أجمل ثيابكم تنتظرون يومًا يقتل فيه مائة ألف مصري. فهذه الأيام تريكم كيف تدور الدوائر، وكيف تتقلب الأحوال بالأهوال على من لم يقرأ العواقب، ومن يلقي نفسه بين نيوب الصَلّ[1] خائفًا من العظاية (السحلية) فقد أبدلت

(1) جنس خبيث من الحيات.

المصائب الولائم الأجنبية بالمآتم الفقرية ودعتكم لتكسير أعواد الطرب والسرور وضرب دف الندب والرثاء. وهل تجزون إلا ما كنتم تعملون[1].

مضى أمس بخيره وشره، وجاء اليوم بتحذيره وإنذاره، وقد سار المرحوم أفندينا توفيق باشا إلى جنة ربه. وزين عرش الحكومة المصرية الملحوظ بعناية الله تعالى أفندينا عباس باشا الثاني، ولا عسكرية تطلب منه حقوقًا وطنية فيقال إنها تريد أن تستبد عليه أو تضعف سلطته فأولى أن يستعين بدولة كذا. ولا خوف عنده من أجنبي يهدده بمنشور ينشره ليجعله وسيلة للتداخل العدواني. ولا أحزاب بين يديه فرقتهم الضغائن الباطلة فشقوا عصا الجامعة الوطنية والوحدة الدينية بوسوسة جاهل ونزع محتال. بل هو الهمام الحازم الصادق الوطنية المحب لجميع أجناس رعيته على اختلاف أديانهم، الساعي في منح الوطنيين حقوقهم، وتمتعهم بخصائصهم الإدارية، وما يحتاج في تنفيذ إرادته إلا إلي رجال نبهتهم صدمة أوروبا إلى الرجوع عما هم فيه من الاغترار والاستغفال، فحاطوا أميرهم مخلصين في انقيادهم إليه لينادي بهم رجال إنكلترا قائلًا هؤلاء رجالي الذين تريدون أن تؤيدوا بهم حكومتي النظامية، فضعوا الأعمال في أيديهم واختبروهم فيما يقومون به من الأعمال. هؤلاء الذين ربتهم مصر وشهدت لهم أوروبا ووقفوا مع سابقيهم تسعين سنة يديرون الأعمال بأنفسهم ويصلحون البلاد

(1) الحديث صريح عن المصريين الذين رحبوا بالاحتلال الإنجليزي لمصر.

حتى حاكوا بها مدن أوروبا الشهيرة، بل ربما وجد الأجنبي فيها من الراحة ما لا يجده في أعظم مدن أوروبا. هؤلاء الذين قلتم لأوروبا إذا وجدنا قومًا لهم قدرة على الأعمال، وفيهم استعداد لحفظ الأمن ونشر المدنية سلمناهم بلادهم وودعناهم بسلام، فهلا جربتموهم في عمل. هؤلاء الذين لا يحتاجون لمجاراة غلادستون[1] في سياسته ولا بسمارك[2] في خداعه ولا القيصر[3] في شدته، فإنهم يديرون أعمالاً بسيطة مكفولة بالقوانين والنظامات ليس فيها سعي خلف استعمار ولا اجتهاد في نشر دين ولا تحايل على توسيع حدود، فأية صعوبة في مثل هذه الأعمال. هؤلاء الذين جئتم لتأييدهم في مراكزهم ودفع يد العدوان الوهمي عنهم وقلتم في مصر من الرجال فلان وفلان، ولا يحتاجون إلا إلى مراقبتهم مدة قصيرة في إدارتهم الجديدة. هؤلاء الذين درسوا أعمالكم وحفظوا نظامكم ووقفوا منتظرين تحقيق الآمال وصدق الوعود فعلام تتعبون في تهذيبهم إن كانوا لا يصلحون. وماذا ترجون منهم بعد تعليمهم أصولكم العسكرية والإدارية والمالية والقضائية إن كانوا لا يفلحون. هؤلاء الذين هم أحق وأولى من

(1) غلادستون (1809 – 1898م) زعيم بريطاني، رأس الوزراء عدة مرات. وكان زعيمًا لحزب الأحرار. وعداؤه لمصر وللإسلام شهير.

(2) بسمارك (1815 – 1898م) زعيم ألمانيا، وباني وحدتها القومية، وأحددها السياسة الأوروبية في القرن التاسع عشر.

(3) الإشارة إلى قيصر ألمانيا فلهلهم الأول – غليوم الأول – (1860 – 1888م).

غريب تستخدمونه بأموالهم المتحصلة منهم، وتنفقون عليه من ذهب ما دفعهُ أوروبي ولا حصله غير مصري. فأي مانع يمنع المصريين من المطالبة بحقوقهم بالتظاهرات الأدبية؟ أصرنا أقل درجة من فَعْلَة الإنكليز والغزالين الذين تعصبوا لحقوقهم وتجمعوا لراحتهم وأذهلوا العالم بأفعالهم التي ما دخلها شغب ولا تخللها خلل.

وكأني بدخيل يوسوس للأجانب قائلًا: إن الأستاذ[1] يدعو إلى ثورة مصرية بهذه العبارة، فقد تعودنا سماع الأراجيف من الدخلاء، وتسليط الأوروبيين على كل بلد نودي فيه بالمحافظة على وطنيته، ونحن نضع حجرًا في فم هذا الدخيل قبل أن يحرك شفتيه بكلمة إغراء. إن المصريين قد جربوا أنفسهم في التظاهر بالقوة، فوقف شقاقهم بينهم وبين الظفر بالمقصود وهم شاكو السلاح كثير والعدد والعدد[2]، والآن لا قوة بأيديهم ولا سلاح، وقادة الجند من الأجانب، ولا يحمل العسكري إلا بندقية فارغة حكمها حكم عصا الراعي، ولا موجب لحركة الأهالي حركة عدوانية بعد خضوعهم

(1) الأستاذ: مجلة عبد الله النديم- التي نشر فيها هذه الدراسة والدخلاء والأجراء- الذين يشير إليهم النديم كثيرًا- هم العاملون في خدمة سلطات الاحتلال بمصر- من الساسة والإعلاميين- وجلهم من نصارى الشوان خريجي مدارس الإرساليات الفرنسية.. وكانت صحيفة (المقطم) لسان حالهم.

(2) الإشارة إلى الثورة العرابية 1881 – 1882م.

لأميرهم وانقيادهم إليه في السر والعلن، وقد تأدبوا وعلموا دسائس أوروبا وتنبهوا لمقاصد الدول وسعيهم في اتخاذهم آلة لبلوغ مآربهم لا لمصلحة المصريين معاذ الله ولا لمنفعة المسلمين استغفر الله، فما من مصري إلا وهو يعلم الآن أن أوروبا لا تصدق في قول ولا تفي بوعد ولا تحب شرقيًّا ولا تسعى في خير مصري، وإنما هي ملاعب سياسية يقدمونها بين أعين الجهلاء الذين لا خبرة لهم بدهاء الدول ومطامعها يستميلونهم بها استمالة الطفل بقطعة حلوى أو ثوب منقوش. ومن انتهى بهم الأمر إلى الوقوف على الغايات والمقاصد السيئة، مع فراغهم من المعدات الآلية وعدم حاجتهم إليها يستحيل عليهم أن يكدروا صفو الراحة بشغب أصواتٍ فضلًا عن قعقعة سلاح. وما يدعوهم الأستاذ إلا إلى مجاراة الأوروباويين فيما هم فيه من معرفة قدر نفوسهم، والمحافظة على حقوقهم ولغاتهم وأديانهم وعوائدهم، والدأب خلف الاستقلال بأعمال بلادهم، فإنهم لا يجهلون أن كلًّا من البلغار والسرب والجبل الأسود ورومانيا أقام تحت تصرف الدولة العلية أكثر من خمسمائة سنة، وفي هذه المدة ما استطاعت الدولة أن تغير دينهم أو لغتهم أو عادتهم، بل حافظوا على الأصلين العظيمين اللغة والدين، وزاحموا ولاة الترك في الأعمال والإدارات، وأكثروا من الصياح والاستنجاد، حتى وقعت الحرب الأخيرة واستقلوا، فلم يحتاجوا لتجديد لغة أو عهد دين أو إعادة معبد، ووجدوا أنفسهم هم الذين كانوا قبل ذلك

بخمسمائة عام، وقد قوبلوا على ذلك بمدح جميع أوروبا وثنائها عليهم، وكان من أعظم المساعدين لهم بل المحركين لهم نفس إنكلترا التي نريد أن نجاريها في أعمالها أو نجاري من أنجدتهم من بعيد، ونحن أقرب إليها من حبل الوريد. والأستاذ يعرض مقالته على كل عاقل منصف، مصريًّا كان أو غير مصري، وأظنه لا يسمع إلا قول المخلصين: إنها إخبار بحقائق، وطلب بحقوق لا تمس شرف رجل ولا تتعرض لأمة ولا تطعن في سياسة، وإنما هي محض درس تهذيبي لمن يسوءهم قول الأوروبيين: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

قضى المسلمون مع الأقباط ثلاثة عشر قرنًا وهم في اختلاط أهل بيت ومعاملة عشيرة واتحاد عائلة ما جرى بينهم يومًا واقعة عدوانية مسببة عن اختلاف الدين، كما نشاهد ونسمع من طرد اليهود من بلادهم وسلب أملاكهم وحليهم واستحلال تعذيبهم وسوقهم إلى سيبيريا حفاة فيهم القيود والأغلال، وتخييرهم بين الانتقال من دينهم أو الرضا بالأشغال الشاقة في سيبيريا التي هي جهنم العذاب أو جهنم شبيهة بها. ولا فعل معهم المسلمون مثل ما فعلته فرنسا مع الجزويت وهم إخوانها في الدين وإن اختلفوا في المذهب، ولا مثل ما فعله البلغار مع المسلمين من هدم مساجدهم وقتلهم وهم في الجمعة يصلون، ولا مثل ما فعله الروس في الشركس الذين اضطروا لترك أوطانهم وأثاثهم وماشيتهم وهاجروا إلى

بلاد الدولة[1] مشاة لا يحملون إلا أجسادهم. بل بقينا معهم كل هذه المدة نتبادل الوظائف والزيارات، وامتلاك الطين والعقار، فلم نسع في شق عصا اجتماعهم وتفريق كلمتهم لنتخذ ذلك ذريعة إلى أمر مطوي في باطن المستقبل، ولهذا لم تجد دولة من الدول العدوانية علة دينية تتداخل بها في شأن مصر باسم راحة المسيحي والمحافظة على المعابد المقدسة وإعطاء الأقباط حريتهم في عوائدهم الدينية، بل كان ائتلاف المسلمين بهم حجابًا بين مصر وبين تلك الدعوة التي تعودتها أوروبا تغريرًا وتضليلًا وفتحًا لباب الحروب بعلل وهمية لا وجود لها في الخارج. ولهذا نرى المسلمين متألمين من انشقاق إخوان الوطنية وحل رابطتهم التي مضت عليها القرون الكثيرة وهي أوثق رابطة عقدت عليها القلوب لا الخناصر[2]، والكل يهجس ويخمن في الباعث والعاقبة، فقد أدبتهم مساعي أوروبا الخيرية، ووجدوا تحت كل نصيحة من نصائحها أساليب شتى للإذلال والاستعباد، على أن الأمر لو كان متمحض القبطية لساء المسلمين تنافرهم وهجرهم كنائسهم ومقابلة بعضهم بعضًا بصدور ممتلئة غضبًا وحقدًا بعد أن كانت وعاء ألفة ومحبة، وهذه ثمة المخالطة الأجنبية وحسنة من حسنات أوروبا التي تتصدق بها علينا. ولسنا نتكلم في الشقاق من حيث داعيه، وإنما نتألم

(1) الدولة العلية العثمانية.

(2) الإشارة إلى ما طرأ على العلاقات القبطية الإسلامية بفعل الدسائس الاستعمارية.

منه من حيث هو شقاق بين طائفة صغيرة يكفي في فصل القضاء بينها أحد العقلاء حرصًا على الجنسية والجامعة الوطنية، وجبر الصدع قلوب كلها فروع أصل واحد، ولا نتكلم على الباعث الديني بأكثر من أملنا في التوفيق بين الفريقين، وسد الأذن عن سماع الأصوات الأجنبية التي تحرك النفوس وتظلم القلوب وتدخل المجموع تحت كلية: اتفقنا واختلفتم لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

فيا بني مصر، لم تبق قطعة في الأرض إلا والجرائد تنقل لكم أخبارها وتريكم أعمالها، فإذا لم تكونوا أهلًا للاختراع- كما قال لكم أحد الإنكليز- فقلدوا عقلاء أوروبا في أفعالهم، وكفاكم الاغترار بترهات المضلين واللياذ بالأجنبي الذي سلبكم ثوب المجد، ولم يبق إلا أن يأكل لحمكم ويشرب دمكم غيظًا على أمة تدفعها الطوارئ إلى وهدة المصائب وهي قادرة على دفعها ولا تتحرك ولا حركة مذبوح. ليُعد المسلم منكم إلى أخيه المسلم تألیفًا للعصبية الدينية، وليرجع الاثنان إلى القبطي والإسرائيلي تأييدًا للجامعة الوطنية، وليكن المجموع رجلًا واحدًا يسعى خلف شيءٍ واحد هو حفظ مصر للمصريين. أيكفينا من الثروة أن نرى أكبر تاجر منا لا تزيد ماليته عن عشرين ألف جنيه، وإذا عددنا هذا القسم قلنا واحد اثنان، فإذا انتهينا إلى التاسع وقفت بنا الأعداد؟ إما تتحرك الهمم الخامدة لفتح محال التجارة شركات وطنية تجمع من سهام قليلة فتربح

كثيرًا وتفتح بيوتًا أغلقت أبوابها أو كادت. أعجزنا عن مجاراة الأمم حتى في هذا العمل الذي يقوم به الأميون والجهلاء الذين تبعثهم ضرورة المعاش إلى اتخاذ طرق الاتجار بالاتحاد؟. ألا تقدرون على عقد شركات تشتري أجزاءً من أطيان الدومين أو الدائرة؛ لتربحوا منها وتستخدموا فيها أخاكم الفلاح وتعوضوا بعض ما أضاعه الإسراف في الملاهي والخروج عن الحد وصيره في يد الأجنبي. أفلا يحسن في أعينكم أن تفتحوا مدارس لأبنائكم تهذبونهم فيها وتعلمونهم وتحولون بينهم وبين الوجهة الأوروبية التي تغرسها ببلادنا مدارس أوروبا في أذهانهم تداركوهم قبل أن تفقدوهم. عرفوهم أنكم آباؤهم قبل أن ينكروكم. لقنوهم ما أنتم عليه من الدين قبل أن يخالفوكم. حفظوهم تاريخ بلادكم وأجدادكم قبل أن يجهلوكم. ردوهم إلى الوطنية قبل أن يحملوا سلاح العداوة ليتقربوا بدمائكم إلى من ربوهم وتبنوهم (جاوَزَ الحِزَام الطُّبْيَيْن) ومرق السهم من الرمية وأصبح لفيفهم ينادي غافلكم:

فإن كنتُ مأكولًا فكن خير آكلي وإلا فأدركني ولـمَّـا أُمــزَّقِ

وارحمتاه لصبية وضعهم الله تعالى أمانة في أيدينا فخنَّاه فيهم وأسلمانهم إلى أجنبيٍّ يسقيهم شرابًا ما شربه الآباء، ويسوقهم في طريق ما سلكه الأجداد، وكلنا يعلم ذلك علم اليقين، وفيه القدرة على حفظ ابنه

من هذه النزغات السيئة، ولا ندري ما يمنعنا من ذلك. أَأُخذت أبناؤُنا في الحديد وسيقت إلى هذه الساحات الأجنبية، لا والله. أم أكرهنا الحاكم على إرسال أبنائنا إلى الفرير والأمريكان وغيرهم، لا والله. أم جهلنا ما يتعلمونه من مغاير الدين واللغة والعادات، لا والله. نحن الذين سلمناهم بأيدينا وصرفنا على إخراجهم عنا من مالنا، ورضينا بما هم فيه من النقل وسوء التعليم، فنحن عنهم بين يدي الله مسئولون. نعلم أن أوروبا لا تعطي شهادة لتلميذ إلا إذا أحسن لغته كل الإحسان، ولا تدخل تلميذًا يغاير التلامذة مذهبًا إلا إذا صلى على مذهبهم أو يبعدونه عنهم. وتنقل لنا الجرائد أخبارهم وسعيهم خلف تعليمهم الوطنية وحقوق الجنسية فهذه إنكلترا الحريصة على جنسيتها، المتعصبة لدينا أشد التعصب، تطالب الأمة بتعليم أبنائها حقوق الوطن والجنس مع أنه ليس وراء ما هي فيه من ذلك مطلب لطالب. وهذه فرنسا تصدر المناشير إلى الكنائس تلزم الأمة جميعها بالصلوات لله تعالى رجاء أن يخلصها من العراقيل التي هي فيها، وهاتان هما الدولتان اللتان تدعيان انحصار المدنية فيهما فلم لا نقلدهما في المحافظة على الوطنية والجنسية والدين وننادي بذلك في القرى والمدن وحجتنا حجتهم وحاجتنا حاجتهم.

نرى كثيرًا من الشرقيين بل المصريين يحومون حول حمى الأجنبي لياذًا به وطلبًا لمعروفه، فهل تناول منه إلا لقمة لو لم يجده لطرحها للكلب لكونها

فضلة طعامه وفتات خوانه[1]، وهل جلس في حضرته إلا مهينًا مزدري منظورًا إليه بعين الاحتقار بل الاستعباد، وهل مكنه من أضعف الأعمال إلا ليستعمله آلة في تنفيذ آماله وتحقيق أمانيه، وهل بش في وجهه مرة إلا ليدخل عليه غفلة الرحمة والحنان ليصرف أنظاره عما يراه من سلب الحقوق.

آن والله أن يتبصر المصري ويشابه رجال أوروبا في الأخذ بالحزم والاعتماد على صدق العزم حرصًا على ما بقي وطمعًا في فرص المستقبل وتحقيقًا لآمال الإنكليز في صلاحنا على أيديهم حتى لا يبكتونا بقولهم: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

(طول العمر يبلغ الأمل) وبالرفق يستخرج الإنسان الحية من وكرها، فلا يحملن الطيش الأحمق منا على التهور والتخلق بأخلاق البهيم، فإننا نعلم أن صيانة بلادنا موقوفة على حفظ الراحة ومعاشرة الأجانب والنزلاء بالمعروف، وبقائنا على الهدوء والسكون، وبعدنا عن الفتن التي يحركها الدخيل والأجنبي لمصلحة دولته، فيجني ثمارها ويلحقنا عارها وناهيكم مذبحة الإسكندرية[2] التي تعيرنا بها أوروبا إلى الآن، وهي تعلم من أحدثها من رجالها بحيث تسميهم

---

(1) الخوان: المائدة يوضع عليها الطعام.

(2) التي حدثت بين المصريين والأجانب في 11 يونيو سنة 1882 م- إبان الثورة العرابية- والتي دبرها عملاء الاستعمار لتكون ذريعة للتدخل الأجنبي، بحجة عجز حكومة عرابي عن حماية أمن الأجانب.

رجلًا رجلًا، وتقدر ما صرف للأجراء جنيهًا جنيهًا، وقد نجت من نسبتها إليها وجعلتها قوباء في غرة مصر ومصر بريئة منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب. ولا ننسى العار الذي ألحقه بنا بعض المأمورين في فتنة طنطا التي دفعته إليها اليد الأجنبية أيضًا فباء بخزي الدنيا وعذاب الآخرة ولحق ببيته غير مأجور على سعيه ولا مشكور على فعله، وهذا جزاء ضعفاء العقول الذين يتجرؤون على ضرر عباد الله وإهلاكهم في مصلحة من يرضيهم بما لا يساوي قلامة ظفر إنسان. تالله، إنه لو جاز لمصري أن يصرح بكل ما يعلم لذكرنا من الحقائق العدوانية ما يكون عبرة وذكرى لقوم يعقلون[1]. وفي الإشارة ما يغني عن الخبر. فاعتبروا يا أولي الألباب. ومن لم يقرأ العواقب وقع في المعاطب. والعاقل من اعتبر بغيره. فالله الله أيها المصريون في أنفسكم وأميركم وأعراضكم وأموالكم وبلادكم. جاهدوا أنفسكم في توحيد كلمتكم، وارجعوا بمحافلكم عن أبواب أوروبا وفتنها، واخدموا بلادكم بظهوركم أمة واحدة واقفة على قدم الخدمة لأميرها، والمحافظة على حقوقها، والمطالبة بخصائصها، ولا تشغلكم المظاهر الأجنبية عن تصحيح أغاليطكم وتطهير بواطنكم، ولا تظنوا أنكم عاجزون عن استرجاع مجدكم والقيام بأعمالكم، فإنما أنتم بشر مثل رجال أوروبا، ولكنهم تجمعوا وافترقنا، وعرفوا حقوقهم وجهلناها، ورفضوا نصائح الغير وقبلناها، وحفظوا

(1) كان النديم قطبًا من أقطاب الثورة العرابية، عالمًا بخفايا أحداثها، ومؤامرات الأجانب التي نفذها عملاؤها إبانها.

دينهم ولغتهم وجنسيتهم وتهاونًا في البعض وتركنا البعض، فإذا جاريناهم في طرقهم الوطنية ساويناهم في الخصائص والمزايا، ودونا لنا تاريخًا جليلًا يفتخر به الأبناء وترحم بسببه الآباء. عما قريب تنبش قبور آبائكم، وأضرحة عبادكم وسادتكم، لتؤخذ تلك العظام النخرة إلى معامل سكر أوروبا حتى لا يبقى هناك أثر لذي مجد من الشرقيين، فإن خفتم من ذلك فاتخذوا أعظم الوسائل لبقاء موتاكم متوسدي تراب قبورهم، فإننا نرى الأوروبيين ينقلون عظام موتاهم من بلاد حاربوا فيها ليحفظوها في أوطانهم حتى يزورها الآتي ويقرأ تاريخها العجيب. لا تظنوا أن هذا لسان التخريف أو التزييف، فإنكم إن استبعدتم الأمر وأنتم على ما أنتم فيه من التهاون والإهمال فكل ما هو آت آت، وإن تنبهتم لذلك وحافظتم على أوطانكم بالمحافظة على امتيازاتكم المكفولة ببقاء الخديوي الأعظم في منصة حكمه، مؤيدًا بخضوعكم إليه وتأييدكم مبادئه الوطنية وأعماله الإصلاحية رضي الله عنكم وأرضاكم، وحفظت أضرحة ساداتكم وقبور موتاكم. وما ذلك بعزيز على أمة خالطت كل الأمم، وقرأت تواريخ الممالك، وتعلمت كل ما يلزم للوطن وحكومته، وساح فريق منها بلاد أوروبا وعرفوا طرق التقدم والإصلاح.

أفيليق بمن هذه صفتهم أن يكون غاية تهذيبهم قعودهم على القهاوي وفي الخمارات، أو اجتماعهم للتشاتم والتقاذف بالمدام، والسعي في المضار؟ لا والله، إن هذا لمن أكبر العيوب وأعظم المصائب، ومن لم

تنبهه الحوادث فهو الغافل، ومن لم يؤدبه الماضي أضربه الآتي، أفلا يحركنا قول أوروبا: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

(أنا أخوك فلم أنكرتني) ما الشام ومصر إلا توأمان أبوهما واحد، يسوءُ الاثنين ما ساء أحدهما، فلم تنافر أبناؤهما وانحاز السوريون في جانب بعيد عن المصريين، وإن ساكنوهم في مصر ألم يكن الأجدر بنا أن نصرف علومنا ومعارفنا وقوانا العقلية في صلاح بلادنا، وبث روح العلم والحياة الوطنية فيها. أبراتب قدرهُ عشرون جنيهًا يبيع المرء منا أخاه ووطنه، بل جنسه ودينه، أم بكلمة تغرير نصرف حياتنا في خدمة الأجنبي لنعينه على إخواننا لينتقم منهم بغير ذنب ويجني على غير جانٍ؟. بئس والله ما أوصلتنا إليه هذه الخزعبلات التي نسميها معارف وآدابًا[1]. زرعنا الأحقاد في قلوبنا بغيًا وعدوانًا. أهلكنا أنفسنا بالعداوة في غير مصلحة جهلًا وحماقةً. فضحنا أنفسنا بنقل عوراتنا للغير سفاهةً وجنونًا. بعنا هيئتنا للأجنبي بلا ثمن خبلًا وبلاهة. ولو اجتمعت كلمتنا وائتلفت نفوسنا وصفت بواطننا وصرفنا هذه الهمم في حفظ الوطنيين وإعلاء كلمة الجنسين لحسدتنا المعالي، ووقفت

(1) كانت الحركة الوطنية في مصر تتخذ من علاقة الدولة العثمانية بمصر أداة لمطالبة إنجلترا بالجلاء عن مصر- التي احتلها إنجلترا وهي ولاية عثمانية.. بينما كانت الحركة الوطنية في الشام- وخصوصًا القطاع المسيحي منها- يخاصم الدولة العثمانية.. وكانت أوروبا تلعب بورقة المسيحية في أوساط المسيحيين الشوام، والموارنة منهم بوجه خاص. وعن هذه المواقف والملابسات يتحدث النديم.

أوروبا تنظرنا بعين الإعظام والإجلال، ولكن قضت شقوة الشرقيين أن يكونوا كحطب النار يأكل بعضه بعضًا لينتفع الغير بنارهم اصطلاء وطبخًا واستعمالًا فيما يشاء. والعهد قريب، والعود غير عسير، فما نتكلف في جمع الكلمتين وتوحيدهما أكثر من الانصراف عن شياطيننا الذين قاموا فينا خطباء ووعاظًا بدروس يتلقونها اليوم بعد الآخر عن الأجنبي، وتبادل الزيارات والمسامرة في المجامع وإخلاص السير، وما ذلك على الله بعزيز. وإلا إذا بقينا على هذا التنافر والتضاد اتخذنا الأجنبي آلات لتنفيذ أوامره فيوقع بيننا العداوة والبغضاء، وربما انتهى الأمر إلى ما لا تحمد عقباه بجهالتنا واعتمادنا على العضد الأجنبي، وفي ذلك من الخزي والعار ما لا تمحوه أكبر الحسنات. واأسفاه على رجال قضى آباؤهم الدهور الطويلة يتبادلون العمران والاستيطان، لا يفرق بينهم دخيل ولا يقطعهم عن بعضهم أجنبي، فجاءوا من بعدهم، وخالفوا سيرهم، وحالفوا غيرهم، وخدموا الأجنبي بمساعدته على التداخل في بلادهم، بل على الاستيلاء عليها، لا لعداوة بين الأمتين، ولا لحرب جرت في الوطنيين، بل برغيف يحصله الزبال وخرقة يملكها الشحاذ. وإن قيل إن جامعة الدين اضطرتهم، قلنا إن عز الاستقلال بالوطنية خير من الإذلال بجامعة الدين، فإن الأجنبي يغر الرجل منا حتى يوصله إلى غرضه، ثم يلحقه بغيرته عند تمام الاستيلاء، ولا يعرف له حقًّا غير خدمته، ولا يفرق بينه وبين من غايره دينًا في الاستخدام والاستعباد.

أنقول هذا وقتنا فنحصل فيه لذاتنا البدنية البهيمية ولا نبالي جاء المستقبل على أهلنا وإخواننا بالعز أو بالهوان. بئس ما يختاره الرجل لنفسه من أن يطعم لقمته مغموسة في دماء جنسه وإخوانه. إن البهيم ليدافع عن جاره فضلًا عن نوعه، فكيف يرضى العاقل أن يكون أقل فضيلة من البهيم. إن كان هناك اعتقاد بجنة ونار فترقبوا إلى الله بما يدخلكم به جنته، وليس ذلك إلا البعد عن مساعدة الأجنبي على إخوانكم، وإن كان الاعتقاد وجود الله وخلود النفس فقط، أو لا رب ولا إله، كما يقول الفريق المدني الأحمق، فبيضوا صحائف التاريخ بمجد خالد وذكر جميل، وإن كان لا اعتقاد رأسًا ولا مجد ولا شرف وإنما هي بهيمية محضة تبعثنا الطبيعيات فيها إلى ما لا تعلق للعقل فيه فيا سوء ما وصلنا إليه.

وبالجملة فإن آخر الدواء الكي، وقد بلغ السيل الزُّبي، فإن رفاءنا هذا الخرق، وشددنا إزر بعضنا، وجمعنا الكلمة الشرقية مصرية وشامية وعربية وتركية أمكننا أن نقول لأوروبا: نحن نحن وأنتم أنتم.

وإن بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالأجانب فريقًا بعد فريق حق لأوروبا أن تطردنا من بلادنا إلى رؤوس الجبال لتلحقنا بالبهيم الوحشي وتصدق في قولها: لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.